# باب أدب الدنيا

اعلم أن الله تعالى لنافذ قدرته وبالغ حكمته خلق الخلق بتدبيره وفطرهم بتقديره فكان من لطيف ما دبر وبديع ما قدر أن خلقهم محتاجين وفطرهم عاجزين ليكون بالغنى منفردا وبالقدرة مختصا حتى يشعرنا بقدرته أنه خالق ويعلمنا بغناه أنه رازق فنذعن بطاعته رغبة ورهبة ونقر بنقصنا عجزا وحاجة ثم جعل الانسان أكثر حاجة من جميع الحيوان لان من الحيوان ما يستقل بنفسه عن جنسه والانسان مطبوع على الافتقار الى جنسه واستعانته صفة لازمة لطبعه وخلقة قائمة فى جوهره ولذلك قال الله سبحانه وتعالى وخلق الانسان ضعيفا يعنى عن الصبر عما هو اليه مفتقر واحتمال ما هو عنه عاجز ولما كان الانسان أكثر حاجة من جميع الحيوان كان أظهر عجزا لأن الحاجة الى الشئ افتقار اليه والمفتقر الى الشئ عاجز عنه . وقال بعض الحكماء المتقدمين استغناؤك عن الشئ خير من استغنائك به وانما خص الله تعالى الانسان بكثرة الحاجة وظهور العجز نعمة عليه ولطفا به ليكون ذل الحاجة ومهانة العجز يمنعانه من طغيان الغنى و بغى القدرة لان الطغيان مركوز فى طبعه اذا استغنى والبغى مستول عليه اذا قدر وقد أنبأ الله تعالى بذلك عنه فقال « كلا ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى » ثم ليكون أقوى الأمور شاهدا على نقصه وأوضحها دليلا على عجزه وأنشدنى بعض أهل الادب لابن الرومى رحمه الله

أعيرتنى بالنقص والنقص شامل * ومن ذا الذى يعطى الكمال فيكمل
وأشهد أنى ناقص غير أننى * اذا قيس بى قوم كثير تقللوا
تفاضل هذا الخلق بالفضل والحجا * ففى أيما هذين أنت تفضل

ولو منح الله الكمال ابن آدم * لخلده والله ما شاء يفعل

ولما خلق الله الانسان ماس الحاجة ظاهر العجز جعل لنيل حاجته أسبابا ولدفع عجزه حيلا دله عليها بالعقل وأرشده اليها بالفطنة . قال الله تعالى والذى قدر فهدى . قال مجاهد قدّر أحوال خلقه فهدى الى سبيل الخير والشر . وقال ابن مسعود فى قوله تعالى وهديناه النجدين يعنى الطريقين طريق الخير وطريق الشر ثم لما كان العقل دالا على أسباب ما تدعو اليه الحاجة جعل الله تعالى الادراك والظفر موقوفا على ما قسم وقدّر كيلا يعتمدوا فى الارزاق على عقولهم وفى العجز على فطنهم لتدوم له الرغبة والرهبة ويظهر منه الغنى والقدرة وربما عزب هذا المعنى على من ساء ظنه بخالقه حتى صار سبيلا لضلاله كما قال الشاعر

سبحان من أنزل الايام منزلها * وصير الناس مرفوضا ومرموقا
فعاقل فطن أعيت مذاهبه * وجاهل خرق تلقاه مرزوقا
هذا الذى ترك الألباب حائرة * وصير العاقل النحرير زنديقا

ولو حسن ظن العاقل فى صحة نظره لعلم من علل المصالح ما صار به صديقا لا زنديقا لان من علل المصالح ما هو ظاهر ومنها ما هو غامض ومنها ما هو مغيب حكمة استأثر الله بها . ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم « حسن الظن بالله من عبادة الله » ثم ان الله تعالى جعل أسباب حاجاته وحيل عجزه فى الدنيا التى جعلها دار تكليف وعمل كما جعل الآخرة دار قرار وجزاء فلزم لذلك أن يصرف الانسان الى دنياه حظا من عنايته لأنه لا غنى له عن التزود منها لآخرته ولا بد من سد الخلة فيها عند حاجته وليس فى هذا القول نقض لما ذكرنا قبل من ترك فضولها وزجر النفس عن الرغبة فيها بل

الراغب فيها ملوم وطالب فضولها مذموم والرغبة انما تختص بما جاوز قدر الحاجة والفضول انما ينطلق على ما زاد على قدر الكفاية . وقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم « فاذا فرغت فانصب والى ربك فارغب » . قال أهل التأويل فاذا فرغت من أمور الدنيا فانصب فى عبادة ربك وليس هذا القول منه ترغيبا لنبيه صلى الله عليه وسلم فيها ولكن ندبه الى أخذ البلغة منها وعلى هذا المعنى قال صلى الله عليه وسلم « ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ولا الآخرة للدنيا ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه » . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « نعم المطية الدنيا فاركبوها تبلغكم الآخرة » وذم رجل الدنيا عند على بن أبى طالب كرم الله وجهه فقال رضى الله عنه الدنيا دار صدق لمن صدقها ودار نجاة لمن فهم عنها ودار غنى لمن تزود منها . وحكى مقاتل أن ابراهيم الخليل على نبينا وعليه الصلاة والسلام قال يارب حتى متى أتردد فى طلب الدنيا فقيل له أمسك عن هذا فليس طلب المعاش من طلب الدنيا . وقال سفيان الثورى رحمة الله عليه مكتوب فى التوراة اذ كان فى البيت برفتعبد واذا لم يكن فاطلب يا ابن آدم حرك يدك يسبب لك رزقك . وقال بعض الحكماء ليس من الرغبة فى الدنيا اكتساب ما يصون العرض فيها . وقال بعض الادباء ليس من الحرص اجتلاب ما يقوت البدن . وقال محمود الوراق

لا تتبع الدنيا وأيامها * ذما وان دارت بك الدائره
من شرف الدنيا ومن فضلها * أن بها تستدرك الآخره

فاذا قد لزم بما بيناه النظر فى أمور الدنيا فواجب سبر أحوالها والكشف عن جهة انتظامها واختلالها لنعلم أسباب صلاحها وفسادها ومواد

عمرانها وخرابها التنتفى عن أهلها شبه الحيره وتنجلى لهم أسباب الحيره فيقصدوا الامور من أبوابها ويعتمدوا صلاح قواعدها وأسبابها

واعلم أن صلاح الدنيا معتبر من وجهين . أولهما ما ينتظم به أمورجملتها . والثانى ما يصلح به حال كل واحد من أهلها فهما شيئان لا صلاح لأحدهما الا بصاحبه لان من صلحت حاله مع فساد الدنيا واختلال أمورها لن يعدم أن يتعدى اليه فسادها ويقدح فيه اختلالها لانه منها يستمد ولها يستعد ومن فسدت حاله مع صلاح الدنيا وانتظام أمورها لم يجد لصلاحها لذة ولا لاستقامتها أثر الان الانسان دنيا نفسه فليس يرى الصلاح الا اذا صلحت له ولا يجد الفساد الا اذا فسدت عليه لان نفسه أخص وحاله أمس فصار نظره الى ما يخصه مصروفا وفكره على ما يسه موقوفا . واعلم أن الدنيا لم تكن قط لجميع أهلها مسعده ولا عن كافة ذويها معرضه لان اعراضها عن جميعهم عطب واسعادها لكافتهم فساد لائتلافهم بالاختلاف والتباين واتفاقهم بالمساعدة والتعاون فاذا تساوى حينئذ جميعهم لم يجد أحدهم الى الاستعانة بغيره سبيلا وبهم من الحاجة والعجز ما وصفنا فيذهبوا ضيعة ويهلكوا عجزا وأما اذا تباينوا واختلفوا صاروا مؤتلفين بالمعونة متواصلين بالحاجة لان ذا الحاجة وصول والمحتاج اليه موصول . وقد قال الله تعالى «ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم» . قال الحسن مختلفين فى الرزق فهذا غنى وهذا فقير ولذلك خلقهم يعنى للاختلاف بالغنى والفقر . وقال الله تعالى «والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق» غير أن الدنيا اذا صلحت كان اسعادها موفورا واعراضها ميسورا لانها اذا منحت هنأت وأودعت واذا استردت رفقت

وأبقت واذا فسدت الدنيا كان اسعادها مكرا واعراضها غدرا لانها اذا منحت كدّت وأتعبت واذا استردّت استأصلت وأجحفت ومع هذا فصلاح الدنيا مصلح لسائر أهلها لوفور أماناتهم وظهور دياناتهم وفسادها مفسد لسائر أهلها القلة أماناتهم وضعف دياناتهم وقد وجد ذلك فى مشاهد الحال تجربة وعرفا كما يقتضيه دليل الحال تعليلا وكشفا فلا شئ أنفع من صلاحها كما لا شئ أضر من فسادها لان ما تقوى به ديانات الناس وتتوفر أماناتهم فلا شئ أحق به نفعا كما أن ما به تضعف دياناتهم وتذهب أماناتهم فلا شئ أجدر به ضررا . وأنشدت لابى بكر بن دريد

الناس مثل زمانهم * قد الحذاء على مثاله
ورجال دهرك مثل دهـ * ـرك فى تقلبه وحاله
وكذا اذا فسد الزما * ن جرى الفساد على رجاله

واذ قد بلغ بنا القول الى ذلك فسنبدأ بذكر ما تصلح به الدنيا ثم نتلوه بوصف ما يصلح به حال الانسان فيها

اعلم أن ما به تصلح الدنيا حتى تصير أحوالها منتظمة وأمورها ملتئمة ستة أشياء هى قواعدها وان تفرعت وهى دين متبع وسلطان قاهر وعدل شامل وأمن عام وخصب دارّ وأمل فسيح

(فأما القاعدة الاولى) وهى الدين المتبع فلانه يصرف النفوس عن شهواتها ويعطف القلوب عن ارادتها حتى يصير قاهرا للسرائر زاجرا للضمائر رقيبا على النفوس فى خلواتها نصوحا لها فى ملماتها وهذه الامور لا يوصل بغير الدين اليها ولا يصلح الناس الا عليها فكان الدين أقوى قاعدة فى صلاح الدنيا واستقامتها وأجدى الامور نفعا فى انتظامها وسلامتها ولذلك لم يخل الله تعالى خلقه مذ فطرهم عقلاء من تكليف شرع واعتقاد دين ينقادون

لحكمه فلا تختلف بهم الآراء و يستسلمون لامره فلا تتصرف بهم الاهواء وانما اختلف العلماء رضى الله عنهم فى العقل والشرع هل جاءا مجيئا واحدا أم سبق العقل ثم تعقبه الشرع فقالت طائفة جاء العقل والشرع معا مجيئا واحدا لم يسبق أحدهما صاحبه . وقالت طائفة أخرى بل سبق العقل ثم تعقبه الشرع لانه بكمال العقل يستدل على صحة الشرع . وقد قال الله تعالى « أيحسب الانسان أن يترك سدى » وذلك لا يوجد منه الا عند كمال عقله فثبت أن الدين من أقوى القواعد فى صلاح الدنيا وهو الفرد الاوحد فى صلاح الآخرة وما كان به صلاح الدنيا والآخرة فحقيق بالعاقل أن يكون به متمسكا وعليه محافظا . وقال بعض الحكماء الادب أديان أدب شريعة وأدب سياسة فأدب الشريعة ما أدى الفرض وأدب السياسة ما عمر الارض وكلاهما يرجع الى العدل الذى به سلامة السلطان وعمارة البلدان لان من ترك الفرض فقد ظلم نفسه ومن خرب الارض فقد ظلم غيره . وقال سعيد ابن حميد

ما صحة أبدا بناقعة * حتى يصح الدين والخلق

(وأما القاعدة الثانية) فهى سلطان قاهر تتألف برهبته الاهواء المختلفة وتجتمع بهيبته القلوب المتفرقة وتنكف بسطوته الايدى المتغالبة وتنقمع من خوفه النفوس المتعادية لان فى طباع الناس من حب المبالغة على ما آثروه والقهر لمن عاندوه ما لا ينكفون عنه الا بمانع قوى ورادع ملىّ . وقد أفصح المتنبى بذلك حيث يقول

لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى * حتى يراق على جوانبه الدم
والظلم من شيم النفوس فان تجد * ذا عفة فلعلة لا يظلم

وهذه العلة المانعة من الظلم لا تخلو من أحد أربعة أشياء اما عقل زاجر أو دين حاجر أو سلطان رادع أو عجز صاد فاذا تأملتها لم تجد خامسا يقترن بها ورهبة السلطان أبلغها لان العقل والدين ربما كانا مضعوفين أو بداعي الهوى مغلوبين فتكون رهبة السلطان أشد زجرا وأقوى ردعا . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان السلطان ظل الله في الارض يأوى اليه كل مظلوم وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال «إن الله ليزع بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن» . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «ان لله حراسا في السماء وحراسا في الارض فحراسه في السماء الملائكة وحراسه في الارض الذين يقبضون أرزاقهم وينبون عن الناس» . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «الامام الجائر خير من الفتنة وكل لا خير فيه وفي بعض الشر خيار» . وقال عبد الله بن مسعود السلطان يفسد وما يصلح الله به أكثر فان عدل فله الاجر وعليكم الشكر وان جار فعليه الوزر وعليكم الصبر . وقال أبو هريرة رضي الله عنه سبت العجم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فنهى عن ذلك وقال لا تسبوها فانها عمرت بلاد الله تعالى فعاش فيها عباد الله تعالى . وقال بعض البلغاء السلطان في نفسه امام متبوع وفي سيرته دين مشروع فان ظلم لم يعدل أحد في حكم وان عدل لم يجسر أحد على ظلم . وقال بعض الادباء ان أقرب الدعوات من الاجابة دعوة السلطان الصالح وأولى الحسنات بالأجر والثواب أمره ونهيه في وجوه المصالح فهذه آثار السلطان في أحوال الدنيا وما ينتظم به أمورها ثم لما في السلطان من حراسة الدين والذب عنه ودفع الاهواء منه وحراسة التبديل فيه وزجر من شذ عنه بارتداد أو بغى فيه بعناد أو سعى فيه بفساد وهذه أمور ان لم تنحسم

عن الدين بسلطان قوى ورعاية وافيه أسرع فيه تبديل ذوى الاهواء وتحريف ذوى الآراء فليس دين زال سلطانه الا بدلت أحكامه وطمست أعلامه وكان لكل زعيم فيه بدعة ولكل عصر فى وهيه أثر كما أن السلطان ان لم يكن على دين تجتمع به القلوب حتى يرى أهله الطاعة فيه فرضا والتناصر عليه حتما لم يكن للسلطان لبث ولا لأيامه صفو وكان سلطان قهر ومفسد دهر ومن هذين الوجهين وجب اقامة امام يكون سلطان الوقت زعيم الأمة ليكون الدين محروسا بسلطانه والسلطان جاريا على سنن الدين وأحكامه . وقد قال عبد الله بن المعتز

الملك بالدين يبقى * والدين بالملك يقوى

واختلف الناس هل وجب ذلك بالعقل أو بالشرع فقالت طائفة وجب بالعقل لأنه معلوم من حال العقلاء على اختلافهم الفزع الى زعيم مندوب للنظر فى مصالحهم وذهب آخرون الى وجوبه بالشرع لأن المقصود بالامام القيام بأمور شرعية كاقامة الحدود واستيفاء الحقوق وقد كان يجوز الاستغناء عنها بأن لا يرد التعبد بها فبأن يجوز الاستغناء عما لا يراد الا لها أولى وعلى هذا اختلفوا فى وجوب بعثة الأنبياء فمن قال بوجوب ذلك بالعقل قال بوجوب بعثة الأنبياء ومن قال بوجوب ذلك بالشرع منع وجوب بعثة الأنبياء لانه لما كان المقصود ببعثتهم تعريف المصالح الشرعية وكان يجوز من المكلفين أن لا تكون هذه الأمور مصلحة لهم لم يجب بعثة الانبياء اليهم . فأما اقامة امامين أو ثلاثة فى عصر واحد وبلد واحد فلا يجوز اجماعا . فأما فى بلدان شتى وأمصار متباعدة فقد ذهبت طائفة شاذة الى جواز ذلك لأن الامام مندوب للمصالح واذا كان اثنان فى بلدين أو ناحيتين كان كل واحد منهما أقوم بما فى يديه وأضبط

لما يليه ولأنه لما جاز بعثة نبيين فى عصر واحد ولم يؤد ذلك الى ابطال النبوّة كانت الامامة أولى ولا يؤدّى ذلك الى ابطال الامامة وذهب الجمهور الى أن اقامة امامين فى عصر واحد لا يجوز شرعا لما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال اذا بويع أميران فولوا أحدهما وروى فاقتلوا الأخير منهما .

وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال اذا وليتم أبا بكر تجدوه قويا فى دين الله عز وجل ضعيفا فى بدنه واذا وليتم عمر تجدوه قويا فى دين الله عز وجل قويا فى بدنه وان وليتم عليا تجدوه هاديا مهديا فبين بظاهر هذا الكلام أن اقامة جميعهم فى عصر واحد لا يصح ولو صح لأشار اليه ولنبه عليه والذى يلزم سلطان الامة من أمورها سبعة أشياء .

أحدها حفظ الدين من تبديل فيه والحث على العمل به من غير اهمال له .

والثانى حراسة البيضة والذب عن الامة من عدوّ فى الدين أو باغى نفس أو مال . والثالث عمارة البلدان باعتماد مصالحها وتهذيب سبلها ومسالكها . والرابع تقدير ما يتولاه من الأموال بسنن الدين من غير تحريف فى أخذها وإعطائها . والخامس معاناة المظالم والأحكام بالتسوية بين أهلها واعتماد النصفة فى فصلها . والسادس إقامة الحدود على مستحقها من غير تجاوز فيها ولا تقصير عنها . والسابع اختيار خلفائه فى الأمور أن يكونوا من أهل الكفاية فيها والأمانة عليها فاذا فعل من أفضى اليه سلطان الأمة ما ذكرناه من هذه الاشياء السبعة كان مؤدّيا حق الله تعالى فيهم مستوجبا طاعتهم ومناصحتهم مستحقا صدق ميلهم ومحبتهم وان قصر عنها ولم يقم بحقها واجبها كان بها مؤاخذا وعليها معاقبا ثم هو من الرعية على استبطان معصية ومقت يتربصون الفرص لاظهارها ويتوقعون

الدوائر لاعلانها . وقد قال الله تعالى قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا . وفي قوله تعالى عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم تأويلان . أحدهما أن العذاب الذي هو من فوقهم أمراء السوء والذي من تحت أرجلهم عبيد السوء وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما . والثاني أن العذاب الذي هو من فوقهم الرجم والذي من تحت أرجلهم الخسف وهذا قول مجاهد وسعيد بن جبير وفي قوله تعالى أو يلبسكم شيعا تأويلان . أحدهما أنه الأهواء المختلفة وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما . والثاني أنه الفتن والاختلاط وهذا قول مجاهد . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما من أمير على عشيرة الا وهو يجيء يوم القيامة مغلولة يداه الى عنقه حتى يكون عمله هو الذي يطلقه أو يوبقه . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال خير أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وشر أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم وهذا صحيح لانه اذا كان ذا خير أحبهم وأحبوه واذا كان ذا شر أبغضهم وأبغضوه . وقد كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه الى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ان الله تعالى اذا أحب عبدا حببه الى خلقه فاعرف منزلتك من الله تعالى بمنزلتك من الناس واعلم أن مالك عند الله مثل ما لله عندك فكان هذا موضحا لمعنى ما ذكرنا وأصل هذا أن خشية الله تبعث على طاعته في خلقه وطاعته في خلقه تبعث على محبته فلذلك كانت محبتهم دليلا على خيره وخشيته وبغضهم دليلا على شره وقلة مراقبته . وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لبعض خلفائه أوصيك أن تخشى الله في الناس ولا تخشى الناس في الله . وقال عمر بن

عبد العزيز لبعض جلسائه انى أخاف الله فما تقلدت فقال له لست أخاف عليك أن تخاف الله وانما أخاف عليك أن لا تخاف الله وهذا واضح لأن الخائف من الله تعالى مأمون الحيف كالذى روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال لأبى مريم السلولى وكان هو الذى قتل أخاه زيد بن الخطاب والله انى لأحبك حتى تحب الأرض الدم قال أفيمنعنى ذلك حقا قال لا قال فلا ضير انما يأسى على الحب النساء . وروى عبد الرحمن بن محمد قال أصدق طلحة بن عبد الله أم كلثوم بنت أبى بكر مائة ألف درهم وهو أول من أصدق هذا القدر فمر بالمال على عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال ما هذا قالوا صداق أم كلثوم ابنة أبى بكر فقال أدخلوه بيت المال وأخبر بذلك طلحة وقيل له كلمه فى ذلك فقال ما أنا بفاعل لئن كان عمر يرى له فيه حقا لا يرده لكلامى وان كان لا يرى فيه حقا ليردنه قال فلما أصبح عمر أمر بالمال فدفع الى أم كلثوم . وحكى أن الرشيد حبس أبا العتاهية فكتب على حائط الحبس

أما والله ان الظلم لؤم * وما زال المسىء هو الظلوم
الى ديان يوم الدين نمضى * وعند الله تجتمع الخصوم
ستعلم فى المعاد اذا التقينا * غدا عند المليك من الظلوم

فأخبر الرشيد بذلك فبكى بكاء شديدا ودعا أبا العتاهية فاستحله ووهب له ألف دينار وأطلقه

(وأما القاعدة الثالثة) فهى عدل شامل يدعو الى الالفة ويبعث على الطاعة وتعمر به البلاد وتنمو به الأموال ويكثر معه النسل ويأمن به السلطان فقد قال الهرمزان لعمر حين رآه وقد نام متبذلا عدلت فأمنت فنمت وليس شىء أسرع فى خراب الأرض ولا أفسد لضمائر الخلق من الجور لأنه

ليس يقف على حدّ ولا ينتهى الى غاية ولكل جزء منه قسط من الفساد حتى يستكمل . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال بئس الزاد الى المعاد العدوان على العباد . وقال صلى الله عليه وسلم ثلاث منجيات وثلاث مهلكات فأما المنجيات فالعدل فى الغضب والرضا وخشية الله فى السر والعلانية والقصد فى الغنى والفقر وأما المهلكات فشح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه . وحكى أن الاسكندر قال لحكماء الهند وقد رأى قلة الشرائع بها لم صارت سنن بلادكم قليلة قالوا لاعطائنا الحق من أنفسنا ولعدل ملوكنا فينا فقال لهم أيما أفضل العدل أم الشجاعة قالوا اذا استعمل العدل أغنى عن الشجاعة . وقال بعض الحكماء بالعدل والانصاف تكون مدة الائتلاف . وقال بعض البلغاء ان العدل ميزان الله الذى وضعه للخلق ونصبه للحق فلا تخالفه فى ميزانه ولا تعارضه فى سلطانه واستعن على العدل بخلتين قلة الطمع وكثرة الورع فاذا كان العدل من احدى قواعد الدنيا التى لا انتظام لها الا به ولا صلاح فيها الا معه وجب أن يبدأ بعدل الانسان فى نفسه ثم بعدله فى غيره فأما عدله فى نفسه فيكون بحملها على المصالح وكفها عن القبائح ثم بالوقوف فى أحوالها على أعدل الامرين من تجاوز أو تقصير فان التجاوز فيها جور والتقصير فيها ظلم ومن ظلم نفسه فهو لغيره أظلم ومن جار عليها فهو على غيره أجور . وقد قال بعض الحكماء من توانى فى نفسه ضاع . وأما عدله مع غيره فقد ينقسم حال الانسان مع غيره على ثلاثة أقسام . فالقسم الاول عدل الانسان فيمن دونه كالسلطان فى رعيته والرئيس مع صحابته فعدله فيهم يكون بأربعة أشياء باتباع الميسور وحذف المعسور وترك التسلط بالقوة

وابتغاء الحق فى السيرة فان اتباع الميسور أدوم وحذف المعسور أسلم وترك التسلط أعطف على المحبة وابتغاء الحق أبعث على النصرة وهذه أمور إن لم تسلم للزعيم المدبر كان الفساد بنظره أكثر والاختلاف بتدبيره أظهر . روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال أشد الناس عذابا يوم القيامة من أشركه الله فى سلطانه بجاره فى حكمه . وقال بعض الحكماء الملك يبقى على الكفر ولا يبقى على الظلم . وقال بعض الأدباء ليس للجائر جار ولا تعمر له دار . وقال بعض البلغاء أقرب الاشياء صرعة الظلوم وأنفذ السهام دعوة المظلوم وقال بعض حكماء الملوك العجب من ملك استفسد رعيته وهو يعلم أن عزه بطاعتهم . وقال أزدشير بن بابك اذا رغب الملك عن العدل رغبت الرعية عن طاعته . وعوتب أنوشروان على ترك عقاب المذنبين فقال هم المرضى ونحن الاطباء فاذا لم نداوهم بالعفو فمن لهم . والقسم الثانى عدل الانسان مع من فوقه كالرعية مع سلطانها والصحابة مع رئيسها فقد يكون بثلاثة أشياء باخلاص الطاعة وبذل النصرة وصدق الولاء فان اخلاص الطاعة أجمع للشمل وبذل النصرة أدفع للوهن وصدق الولاء أنفى لسوء الظن وهذه أمور ان لم تجتمع فى المرء تسلط عليه من كان يدفع عنه واضطر الى اتقاء من كان يقيه كما قال البحترى

متى أحوجت ذا كرم تخطى * اليك ببعض أخلاق اللئام

وفى استمرار هذا حل نظام جامع وفساد صلاح شامل . وقال أبرويس أطع من فوقك يطعك من دونك . وقال بعض الحكماء الظلم مسلبة النعم والبغى مجلبة النقم . وقال بعض الحكماء ان الله تعالى لا يرضى عن خلقه الا بتأدية حقه وحقه شكر النعمه ونصح الأمه وحسن الصنيعه ولزوم

الشريعه . والقسم الثالث عدل الانسان مع أكفائه ويكون بثلاثة أشياء بترك الاستطالة ومجانبة الادلال وكف الاذى لان ترك الاستطالة آلف ومجانبة الادلال أعطف وكف الأذى أنصف وهذه أمور ان لم تخلص فى الأكفاء أسرع فيهم تقاطع الاعداء ففسدوا وأفسدوا . وقد روى عن عمر بن عبد العزيز عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أنبئكم بشراركم الناس قالوا بلى يارسول الله قال (١) من نزل وحده ومنع رفده وجلد عبده ثم قال أفلا أنبئكم بشر من ذلك قالوا بلى يارسول الله قال من لا يرجى خيره ولا يؤمن شره ثم قال ألا أنبئكم بشر من ذلك قالوا بلى يارسول الله قال من يبغض الناس و يبغضونه . وروى أن عيسى بن مريم عليهما السلام قام خطيبا فى بنى اسرائيل فقال يابنى اسرائيل لا تتكلموا بالحكمة عند الجهال فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم ولا تكافئوا ظالما فيبطل فضلكم يابنى اسرائيل الامور ثلاثة أمر تبين رشده فاتبعوه وأمر تبين غيه فاجتنبوه وأمر اختلفتم فيه فردوه الى الله تعالى وهذا الحديث جامع لآداب العدل فى الاحوال كلها . وقال بعض الحكماء كل عقل لا يدارى به الكل فليس بعقل تام . وقال بعض الشعراء

مادمت حيا فدار الناس كلهم * فانما أنت فى دار المداراة

من يدر دارى ومن لم يدر سوف يرى * عما قليل نديما للندامات

وقد يتعلق بهذه الطبقات أمور خاصة يكون عدلهم فيها بالتوسط فى حالتى التقصير والسرف لأن العدل مأخوذ من الاعتدال فما جاوز الاعتدال فهو خروج عن العدل . وقد قالت الحكماء الفضائل هيئات متوسطة بين حالتين ناقصتين وأفعال الخير تتوسط بين رذيلتين (فالحكمة) واسطة بين الشر

(١) قوله من نزل المشهور فى الحديث من أكل ولعل هذه رواية أخرى كتبه مصححه

والجهالة (والشجاعة) واسطة بين التقحم والجبن (والعفة) واسطة بين الشره وضعف الشهوة (والسكينة) واسطة بين السخط وضعف الغضب (والغيرة) واسطة بين الخسف وسوء العادة (والظرف) واسطة بين الملاعة والفدامة (والتواضع) واسطة بين الكبر ودناءة النفس (والسخاء) واسطة بين التبذير والتقتير (والحلم) واسطة بين افراط الغضب وعدمه (والمودة) واسطة بين الخلابة وحسن الخلق (والحياء) واسطة بين القحة والخصر (والوقار) واسطة بين الهزء والسخافة واذا كان ماخرج عن الاعتدال الى ماليس باعتدال خروجا عن العدل الى ماليس بعدل كان ماخرج عن الأولى الى ماليس بأولى خروجا عن العدل الى ماليس بعدل . وقد قال بعض البلغاء السلطان السوء يخيف البرىء ويصطنع الدنىء والبلد السوء يجمع السفل ويورث العلل والولد السوء يشين السلف ويهدم الشرف والجار السوء يفشى الشر ويهتك الستر فجعل هذه الاشياء بخروجها عن الأولى الى ماليس بأولى خروجا عن العدل الى ماليس بعدل ولست تجد فسادا الا وسببه نتيجة الخروج فيه عن حال العدل الى ماليس بعدل من حالتى الزيادة والنقصان فاذن لاشىء أنفع من العدل كما أنه لاشىء أضر مما ليس بعدل

( وأما القاعدة الرابعة ) فهى أمن عام تطمئن اليه النفوس وتتيسر فيه الهمم ويسكن فيه البرىء ويأنس به الضعيف فليس لخائف راحة ولا لحاذر طمأنينة . وقد قال بعض الحكماء الأمن أهنأ عيش والعدل أقوى جيش لأن الخوف يقبض الناس عن مصالحهم ويحجزهم عن تصرفهم ويكفهم عن أسباب المواد التى بها قوام أودهم وانتظام جملتهم ولئن كان الأمن من نتائج العدل والجور من نتائج ماليس بعدل فقد يكون

الجور تارة بمقاصد الآدميين الخارجة عن العدل وتارة يكون بأسباب حادثة عن غير مقاصد الآدميين فلا تكون خارجة عن حال العدل فمن أجل ذلك لم يكن ما سبق من حال العدل مقتضيا عن أن يكون الأمن فى انتظام الدنيا قاعدة كالعدل فاذا كان ذلك كذلك فالأمن المطلق ما عم والخوف قد يتنوع تارة ويعم فتنوعه بأن يكون تارة على النفس وتارة على الاهل وتارة على المال وعمومه أن يستوعب جميع الاحوال ولكل واحد من أنواعه حظ من الوهن ونصيب من الحزن وقد يختلف باختلاف أسبابه ويتفاضل بتباين جهاته ويكون بحسب اختلاف ارغبة فيما خيف عليه فمن أجل ذلك لم يجز أن يصف حال كل واحد من أنواعه بمقدار من الوهن ونصيب من الحزن لاسيما والخائف على الشئ مختص الهم به منصرف الفكر عن غيره فهو يظن أن لا خوف له الا اياه فيغفل عن قدر النعمة بالأمن فيما سواه فصار كالمريض الذى هو بمرضه متشاغل وعما سواه غافل ولعل ما صرف عنه أعظم مما ابتلى به

على أنها تعفو الكلوم وإنما * نوكل بالأدنى وان جل ما يمضى

﴿ وحكى ﴾ أن رجلا قال وأعرابى حاضر ما أشد وجع الضرس فقال الاعرابى كل داء أشد داء كذلك من عمه الأمن كمن استولت عليه العافية فهو لا يعرف قدر النعمة بأمنه حتى يخاف كما لا يعرف المعافى قدر النعمة بعافيته حتى يصاب . وقال بعض الحكماء انما يعرف قدر النعمة بمقاساة ضدها فأخذ ذلك أبو تمام الطائى فقال

والحادثات وان أصابك بؤسها * فهو الذى أنبأك كيف نعيمكا

فالاولى بالعاقل أن يتذكر عند مرضه وخوفه قدر النعمة فيما سوى ذلك من

عافيته وأمنه وما انصرف عنه مما هو أشد من مرضه وخوفه فيستبدل بالشكوى شكرا وبالجزع صبرا فيكون فرحا مسرورا . حكى أن يعقوب قال ليوسف عليهما السلام حين لقيه أى شئ كان خبرك بعدى قال لا تسأل عما فعله بى اخوتى سلنى عما صنعه بى ربى . وقال الشاعر

لا تنس فى الصحة أيام السقم * فان عقبى تارك الحزم ندم

﴿ وأما القاعدة الخامسة ﴾ فهى خصب دار تتسع النفوس به فى الاحوال ويشترك فيه ذوا لاكثار والاقلال فيقل فى الناس الحسد وينتفى عنهم تباغض العدم وتتسع النفوس فى التوسع وتكثر المواساة والتواصل وذلك من أقوى الدواعى لصلاح الدنيا وانتظام أحوالها ولأن الخصب يؤول الى الغنى والغنى يورث الامانة والسخاء . وكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى أبى موسى الأشعرى لا تستقضين الا ذا حسب أو مال فان ذا الحسب يخاف العواقب وذا المال لا يرغب فى مال غيره . وقال بعض السلف انى وجدت خير الدنيا والآخرة فى التقى والغنى وشر الدنيا والآخرة فى الفجور والفقر . وقال بعض الشعراء

ولم أر بعد الدين خيرا من الغنى * ولم أر بعد الكفر شرا من الفقر

وبحسب الغنى يكون اقلال البخيل واعطاؤه واكثار الجواد وسخاؤه كما قال دعبل

لئن كنت لا تولى ندى دون إمرة * فلست بموول نائلا آخر الدهر

وأى اناء لم يفض عند ملئه * وأى بخيل لم ينل ساعة الوفر

واذا كان الخصب يحدث من أسباب الصلاح ما وصفت كان الجدب يحدث من أسباب الفساد ما ضادها وكما أن صلاح الخصب عام فكذلك فساد

الجدب عام وما عم به الصلاح ان وجد عم به الفساد إن فقد فأحرى أن يكون من قواعد الصلاح ودواعى الاستقامة . والخصب يكون من وجهين خصب فى المكاسب وخصب فى الموادّ فأما خصب المكاسب فقد يتفرع من خصب الموادّ وهو من نتائج الأمن المقترن بها . وأما خصب الموادّ فقد يتفرع عن أسباب إلهية وهو من نتائج العدل المقترن بها

﴿وأما القاعدة السادسة﴾ فهى أمل فسيح يبعث على اقتناء ما يقصر العمر عن استيعابه ويبعث على اقتناء ما ليس يؤمل فى دركه بحياة أربابه ولولا أن الثانى يرتفق بما أنشأه الاول حتى يصير به مستغنيا لافتقر أهل كل عصر الى انشاء ما يحتاجون اليه من منازل السكنى وأراضى الحرث وفى ذلك من الاعواز وتعذر الامكان ما لا خفاء به فلذلك ما أرفق الله تعالى خلقه من اتساع الآمال حتى عمر به الدنيا فتم صلاحها وصارت تنتقل بعمرانها الى قرن بعد قرن فيتم الثانى ما أبقاه الاول من عمارتها ويرمّ الثالث ما أحدثه الثانى من شعثها لتكون أحوالها على الاعصار ملتئمه وأمورها على ممر الدهور منتظمه ولو قصرت الآمال ما تجاوز الواحد حاجة يومه ولا تعدّى ضرورة وقته ولكانت تنتقل الى من بعده خرابا لا يجد فيها بلغة ولا يدرك منها حاجة ثم تنتقل الى من بعد بأسوأ من ذلك حالا حتى لا ينمى بها نبت ولا يمكن فيها البث . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال الأمل رحمة من الله لأمتى ولولاه ما غرس غارس شجرا ولا أرضعت أم ولدا . وقال الشاعر

وللنفوس وان كانت على وجل * من المنية آمال تقويها
فالصبر يبسطها والدهر يقبضها * والنفس تنشرها والموت يطويها

وأما حال الأمل فى أمر الآخرة فهو من أقوى الاسباب فى الغفلة عنها وقلة

الاستعداد لها وقد أفصح لبيد بن ربيعة مع أعرابيته بما تبين به حال الأمل فى الأمرين فقال

وأكذب النفس اذا حدثتها * ان صدق النفس يزرى بالأمل
غير أن لا تكذبنها فى التقى * واخزها بالبر لله الاجل

وفرق ما بين الآمال والامانى أن الآمال ما تقيدت بأسباب والامانى ما تجردت عنها

فهذه القواعد الست التى تصلح بها أحوال الدنيا وتنتظم أمور جملتها فان كملت فيها كمل صلاحها و بعيد أن يكون أمر الدنيا تاما كاملا وأن يكون صلاحها عاما شاملا لأنها موضوعة على التغير والفناء منشأة على التصرم والانقضاء . وسمع بعض الحكماء رجلا يقول قلب الله الدنيا قال فاذن تستوى لأنها مقلوبة . وقال بعض الشعراء

ومن عادة الأيام أن قلوبها * اذا سر منها جانب ساء جانب
وما أعرف الأيام الا ذميمة * ولا الدهر الا وهو للثار طالب

وبحسب ما اختل من قواعدها يكون اختلالها وفسادها

﴿ فصل ﴾ وأما ما يصلح به حال الانسان فيها فثلاثة أشياء هى قواعد أمره ونظام حاله وهى نفس مطيعة الى رشدها منتهية عن غيها وألفة جامعة تنعطف القلوب عليها ويندفع المكروه بها ومادة كافية تسكن نفس الانسان اليها و يستقيم أوده بها

(فأما القاعدة الأولى) التى هى نفس مطيعة فلأنها اذا أطاعته ملكها واذا عصته ملكته ولم يملكها ومن لم يملك نفسه فهو بأن لا يملك غيرها أحرى ومن عصته نفسه كان بمعصية غيرها أولى . وقال بعض الحكماء لا ينبغى للعاقل أن يطلب طاعة غيره ونفسه ممتنعة عليه . وقد قال الشاعر

أتطمع أن يطيعك قلب سعدى * وتزعم أن قلبك قد عصاكا

وطاعة نفسه تكون من وجهين أحدهما نصح والثاني انقياد . فأما النصح فهو أن ينظر الى الامور بحقائقها فيرى الرشد رشدا ويستحسنه ويرى الغيّ غيا ويستقبحه وهذا يكون من صدق النفس اذا سلمت من دواعي الهوى ولذلك قيل من تفكر أبصر . فأما الانقياد فهو أن تسرع الى الرشد اذا أمرها وتنتهي عن الغيّ اذا زجرها وهذا يكون من قبول النفس اذا كفيت منازعة الشهوات . قال الله تعالى ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما . وللنفس آداب هي تمام طاعتها وكمال مصلحتها وقد أفردنا لها من هذا الكتاب بابا واقتصرنا في هذا الموضع على ما قد اقتضاه الترتيب واستدعاه التقريب

(وأما القاعدة الثانية) التي هي الالفة الجامعة فلأن الانسان مقصود بالأذية محسود بالنعمة فاذا لم يكن آلفا مألوفا تخطفته أيدي حاسديه وتحكمت فيه أهواء أعاديه فلم تسلم له نعمة ولم تصف له مدّة فاذا كان آلفا مألوفا انتصر بالالفة على أعاديه وامتنع من حاسديه فسلمت نعمته منهم وصفت مدّته عنهم وان كان صفو الزمان غرّة وسلمه خطرا . وقد روى ابن جريج عن عطاء رحمهما الله عن جابر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال المؤمن آلف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف وخير الناس أنفعهم للناس . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان الله تعالى يرضى لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيأ وأن تعتصموا بحبله جميعا ولا تتفرقوا وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم ويكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال وكل ذلك حث منه صلى الله عليه وسلم على الالفة والعرب تقول من قلّ ذل . وقال قيس بن عاصم

ان القداح اذا اجتمعن فرامها * بالكسر ذو حنق وبطش أيد
عزت فلم تكسر وان هي بددت * فالوهن والتكسير للمتبدد

واذا كانت الالفة بما أثبت تجمع الشمل وتمنع الذل اقتضت الحال ذكر أسبابها . وأسباب الالفة خمسة وهي الدين والنسب والمصاهرة والمودة والبر فأما الدين وهو الاول من أسباب الالفة فلأنه يبعث على التناصر ويمنع من التقاطع والتدابر وبمثل ذلك وصى رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه فروى سفيان عن الزهري عن أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله اخوانا لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث . هذا وان كان اجتماعهم في الدين يقتضيه فهو على وجه التحذير من تذكرات الجاهلية وإحن الضلالة فقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم والعرب أشد تقاطعا وتعاديا وأكثر اختلافا وتعاديا حتى ان بني الأب الواحد كانوا يتفرقون أحزابا فتثور بينهم بالتحزب والافتراق أحقاد الاعداء وإحن البعداء وكانت الانصار أشدهم تقاطعا وتعاديا وكان بين الأوس والخزرج من الاختلاف والتباين أكثر من غيرهم الى أن أسلموا فذهبت إحنهم وانقطعت عداوتهم وصاروا بالاسلام اخوانا متواصلين وبألفة الدين أعوانا متناصرين . قال الله تعالى واذكروا اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا يعني أعداء في الجاهلية فألف بين قلوبكم بالاسلام . وقال تعالى ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا يعني حبا وعلى حسب التألف على الدين تكون العداوة فيه اذا اختلف أهله فان الانسان قد يقطع في الدين من كان به بارا وعليه مشفقا هذا أبو عبيدة بن الجراح وقد كانت له المنزلة

العالية فى الفضل والاثر المشهور فى الاسلام قتل أباه يوم بدر وأتى برأسه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم طاعة لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم حين بقى على ضلاله وانهماكه فى طغيانه فلم تعطفه عليه رحمة ولا كفه عنه شفقة وهو من أبر الابناء تغليبا للدين على النسب ولطاعة الله تعالى على طاعة الاب . وفيه أنزل الله لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم .

وقد يختلف أهل الدين على مذاهب شتى وآراء مختلفة فيحدث بين المختلفين فيه من العداوة والتباين مثل ما يحدث بين المختلفين فى الأديان وعلة ذلك أن الدين والاجتماع على العقد الواحد فيه لما كان أقوى أسباب الألفة كان الاختلاف فيه من أقوى أسباب الفرقة واذا تكافأ أهل الأديان المختلفة والمذاهب المتباينة ولم يكن أحد الفريقين أعلى يدا وأكثر عددا كانت العداوة بينهم أقوى والاحن فيهم أعظم لانه ينضم الى عداوة الاختلاف تحاسد الاكفاء وتنافس النظراء . وأما النسب وهو الثانى من أسباب الألفة فلأن تعاطف الارحام وحمية القرابة يبعثان على التناصر والالفة ويمنعان من التخاذل والفرقة أنفة من استعلاء الأباعد على الأقارب وتوقيا من تسلط الغرباء الأجانب . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ان الرحم اذا تماست تعاطفت ولذلك حفظت العرب أنسابها لما امتنعت عن سلطان يقهرها ويكف الأذى عنها لتكون به متظافرة على من ناواها متناصرة على من شاقها وعاداها حتى بلغت ألفة الانساب وتناصرها عز القوى الأيد وتحكمت فيه تحكم المتسلط المتشطط . وقد أعذر نبى الله لوط عليه السلام نفسه حين عدم عشيرة تنصره فقال لمن بعث اليهم لو أن لى بكم

قوّة أو آوى الى ركن شديد يعنى عشيرة مانعة . وروى أبو سلمة عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رحم الله لوطا لقد كان يأوى الى ركن شديد . يعنى الله عز وجل . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بعث الله تعالى من نبى بعده الا فى ثروة من قومه . وقال وهب لقد ردّت الرسل على لوط وقالوا ان ركنك لشديد . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان لا يترك المرء مفرجا حتى يضمه الى قبيلة يكون فيها . قال الرياشى المفرج الذى لا ينتمى الى قبيلة يكون منها وكل ذلك حث منه صلى الله عليه وسلم على الالفة وكف عن الفرقة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم من كثر سواد قوم فهو منهم . واذا كان النسب بهذه المنزلة من الالفة فقد تعرض له عوارض تمنع منها وتبعث على الفرقة المنافية لها فاذن قد لزم أن نصف حال الانساب وما يعرض لها من الاسباب فجملة الانساب أنها تنقسم ثلاثة أقسام قسم والدون وقسم مولودون وقسم مناسبون ولكل قسم منهم منزلة من البر والصلة وعارض يطرأ فيبعث على العقوق والقطيعة . فأما الوالدون فهم الآباء والامهات والاجداد والجدّات وهم موسومون مع سلامة أحوالهم بخلقين أحدهما لازم بالطبع والثانى حادث باكتساب . فأما ما كان لازما بالطبع فهو الحذر والاشفاق وذلك لا ينتقل عن الوالد بحال . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لكل شئ ثمرة وثمرة القلب الولد وروى عنه أنه قال الولد مبخلة مجهلة محزنة فأخبر أن الحذر عليه يكسب هذه الأوصاف ويحدث هذه الأخلاق وقد كره قوم طلب الولد كراهة لهذه الحالة التى لا يقدر على دفعها عن نفسه للزومها طبعا وحدوثها حتما . وقيل ليحيى بن زكرياء عليهما السلام

ما بالك تكره الولد فقال مالى وللولد ان عاش كدّنى وان مات هدّنى .
وقيل لعيسى بن مريم عليهما السلام ألا تتزوج فقال انما يحب التكاثر فى دار
البقاء . وأما ما كان حادثا بالاكتساب فهى المحبة التى تنمى مع الاوقات
وتتغير مع تغير الحالات . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال الولد
أنوط يعنى أن حبه ملصق بنياط القلب . فان انصرف الوالد عن حب الولد
فليس ذلك لبغض منه ولكن لسلوة حدثت من عقوق أو تقصير مع
بقاء الحذر والاشفاق الذى لا يزول عنه ولا ينتقل منه . فقد قال محمد بن
على رضى الله عنه إن الله تعالى رضى الآباء للابناء فحذرهم فتنتهم ولم يوصهم
بهم ولم يرض الأبناء للآباء فأوصاهم بهم وان شر الابناء من دعاه التقصير
الى العقوق وشر الآباء من دعاه البر الى الافراط . والامهات أكثر اشفاقا
وأوفر حبا لما باشرن من الولادة وعانين من التربية فانهن أرق قلوبا وألين
نفوسا وبحسب ذلك وجب أن يكون التعطف عليهن أوفر جزاء لفعلهن
وكفاء لحقهن وان كان الله تعالى قد أشرك بينهما فى البر وجمع بينهما فى
الوصية فقال تعالى ووصينا الانسان بوالديه حسنا . وقد روى أن رجلا أتى
الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال إن لى أما أنا مطيتها أقعدها على ظهرى
ولا أصرف عنها وجهى وأرد الها كسبى فهل جزيتها قال لا ولا بزفرة
واحدة قال ولم قال لانها كانت تخدمك وهى تحب حياتك وأنت تخدمها
وتحب موتها . وقال الحسن البصرى حق الوالد أعظم وبر الوالدة ألزم .
وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال أنهاكم عن عقوق الامهات ووأد
البنات ومنع وهات . وروى خالد بن معدان عن المقداد قال سمعت رسول
الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله يوصيكم بأمهاتكم ثم يوصيكم بأمهاتكم
ثم يوصيكم بأمهاتكم ثم يوصيكم بآبائكم ثم يوصيكم بالأقرب فالأقرب

وأما المولودون فهم الأولاد وأولاد الاولاد والعرب تسمى ولد الولد الصفوة وهم مختصون مع سلامة أحوالهم بخلقين أحدهما لازم والآخر منتقل .
فأما اللازم فهو الأنفة للآباء من تهضم أو خمول والأنفة فى الابناء فى مقابلة الاشفاق فى الآباء وقد لحظ أبو تمام الطائى هذا المعنى فى شعره فقال

فأصبحت يلقانى الزمان لأجله * باعظام مولود وإشفاق والد

وأما المنتقل فهو الادلال وهو أول حال الولد والادلال فى الابناء فى مقابلة المحبة فى الآباء . لأن المحبة بالآباء أخص والادلال بالابناء أمس .
وقد روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال قلت يارسول الله ما بالنا نرق على أولادنا ولا يرقون علينا قال لأنا ولدناهم ولم يلدونا . ثم الادلال فى الابناء قد ينتقل مع الكبر الى أحد أمرين إما الى البر والاعظام وإما الى الجفاء والعقوق فان كان الولد رشيدا أو كان الأب مراعطوفا صار الادلال برا وإعظاما .
وقد روى الزهرى عن عامر بن شراحيل أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لجرير ابن عبد الله ان حق الوالد على الولد أن يخشع له عند الغضب ويؤثره على نفسه عند النصب والسغب فان المكافئ ليس بالواصل ولكن الواصل من اذا قطعت رحمه وصلها وان كان الولد غاويا أو كان الوالد جافيا صار الادلال قطيعة وعقوقا . ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم رحم الله امرأ أعان ولده على برّه . وبشر عمر بن الخطاب رضى الله عنه بمولود فقال ريحانة أشمها ثم هو عن قريب ولد بارّ أو عدو ضارّ . وقد قيل فى منثور الحكم العقوق ثكل من لم يثكل . وقال بعض الحكماء ابنك ريحانك سبعا وخادمك سبعا ووزيرك سبعا ثم هو صديق أو عدو

وأما المناسبون فهم من عدا الآباء والابناء ممن يرجع بتعصيب أو رحم والذى يختصون به الحمية الباعثة على النصرة وهى أدنى رتبة الأنفة لأن

الانفة تمنع من التهضم والخمول معا والحمية تمنع من التهضم وليس لها فى كراهة الخمول نصيب الا أن يقترن بها ما يبعث على الأنفة . وحمية المناسبين انما تدعو الى النصرة على البعداء والاجانب وهى معرّضة لحسد الأدانى والأقارب موكولة الى منافسة الصاحب بالصاحب فان حرست بالتواصل والتلاطف تأكدت أسبابها واقترن بحمية النسب مصافاة المودّة وذلك أوكد أسباب الالفة وقد قيل لبعض قريش أيما أحب اليك أخولك أو صديقك قال أخى اذا كان صديقا . وقال مسلمة بن عبد الملك العيش فى ثلاث سعة المنزل وكثرة الخدم وموافقة الاهل . وقال بعض الحكماء البعيد قريب بمودّته والقريب بعيد بعداوته وان أهملت الحال بين المتناسبين ثقة بلحمة النسب واعتمادا على حمية القرابة غلب عليها مقت الحسد أو منازعة التنافس فصارت المناسبة عداوة والقرابة بعدا . وقال الكندى فى بعض رسائله الأب رب والولد كد والاخ فخ والعم غم والخال وبال والاقارب عقارب . وقال عبد الله بن المعتز

لحومهم لحمى وهم يأكلونه * وما داهيات المرء الا أقاربه

ومن أجل ذلك أمر الله تعالى بصلة الارحام وأثنى على واصلها فقال تعالى والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب قال المفسرون هى الرحم التى أمر الله بوصلها ويخشون ربهم فى قطعها ويخافون سوء الحساب فى المعاقبة عليها . وروى عبد الرحمن ابن عوف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يقول الله عز وجل أنا الرحمن وهى الرحم اشتققت اسمها من اسمى فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته . وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال صلة الرحم منماة للعدد مثراة للمال محبة فى الاهل منسأة فى الأجل . وقال بعض الحكماء

بلوا أرحامكم بالحقوق ولا تحفوها بالعقوق . وقال بعض البلغاء صلوا أرحامكم فانها الاتبنى على أصولكم ولا تهضم عليها أقداركم . وقال بعض الادباء من لم يصلح لأهله لم يصلح لك ومن لم يذب عنهم لم يذب عنك . وقال بعض الفصحاء من وصل رحمه وصله الله ورحمه ومن أجار جاره أعانه الله وأجاره . وقال محمد بن عبد الله الازدى

وحسبك من ذل وسوء صنيعة * مناواة ذى القربى وأن قيل قاطع
ولكن أواسيه وأنسى ذنوبه * لترجعه يوما الى الرأى راجع
ولا يستوى فى الحكم عبدان واصل * وعبد لأرحام القرابة قاطع

﴿ وأما المصاهرة ﴾ وهى الثالث من أسباب الالفة فلانها استحداث مواصلة وتمازج مناسبة صدرا عن رغبة واختيار وانعقدا عن خبرة وايثار فاجتمع فيها أسباب الالفة ومواد المظاهرة قال الله تعالى ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة يعنى بالمودة المحبة وبالرحمة الحنو والشفقة وهما من أوكد أسباب الالفة وفيها تأويل آخر قاله الحسن البصرى رحمه الله ان المودة النكاح والرحمة الولد . وقال تعالى والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة . اختلف المفسرون فى الحفدة فقال عبد الله بن مسعود هم أختان الرجل على بناته وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما هم ولد الرجل وولد ولده وروى عنه أنهم بنو امرأة الرجل من غيره وسموا حفدة لخدمهم فى الخدمة وسرعتهم فى العمل ومنه قولهم فى القنوت واليك نسعى ونحفد أى نسرع الى العمل بطاعتك ولم تزل العرب تجتذب البعداء وتتألف الاعداء بالمصاهرة حتى يرجع النافر مؤانسا ويصير العدو موالیا وقد يصير الصهر بين الاثنين ألفة بين القبيلتين وموالاة بين

العشيرتين . حكى عن خالد بن يزيد بن معاوية أنه قال كان أبغض خلق الله عز وجل الىّ آل الزبير حتى تزوجت منهم رملة فصاروا أحب خلق الله عز وجل الى . وفيها يقول

أحب بنى العوّام طرا لأجلها * ومن أجلها أحببت أخوالها كلبا

فان تسلمى نسلم وان تتنصرى * يحط رجال بين أعينهم صلبا

ولذلك قيل المرء على دين زوجته لما يستنزله الميل اليها من المتابعة و يجتذبه الحب لها من الموافقة فلا يجد الى المخالفة سبيلا ولا الى المباينة والمشاقة طريقا . واذا كانت المصاهرة للنكاح بهذه المنزلة من الالفة فقد ينبغى لعقدها أحد خمسة أوجه وهى المال والجمال والدين والالفة والتعفف . وقد روى سعيد بن أبى سعيد عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « تنكح المرأة لأربع لمالها ولجمالها ولحسبها ولدينها فعليك بذات الدين تربت يداك » فان كان عقد النكاح لاجل المال وكان أقوى الدواعى اليه فالمال اذن هو المنكوح فان اقترن بذلك أحد الاسباب الباعثة على الائتلاف جاز أن يلبث العقد وتدوم الالفة فان تجرد عن غيره من الاسباب وعرى عما سواه من المواد فأخلق بالعقد أن ينحل وبالالفة أن تزول لاسيما اذا غلب الطمع وقل الوفاء لان المال ان وصل اليه فقد ينقضى سبب الالفة به فقد قيل من وذلك لشئ ولى مع انقضائه وان أعوز الوصول اليه وتعذرت القدرة عليه أعقب ذلك استهانة الآيس بعد شدة الامل فحدثت منه عداوة الخائب بعد استحكام الطمع فصارت الوصلة فرقة والالفة عداوة وقد قيل من ودك طمعا فيك أبغضك اذا أيس منك . وقال عبد الحميد من عظمك لا كثارك استقلك عند اقلالك فان كان العقد رغبة فى الجمال

فذلك أدوم للالفة من المال لان الجمال صفة لازمة والمال صفة زائلة . ولذلك قيل حسن الصورة أول السعادة . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أعظم النساء بركة أحسنهن وجها وأقلهن مهرا فان سلمت الحال من الادلال المفضى الى الملل استدامت الالفة واستحكمت الوصلة وقد كانوا يكرهون الجمال البارع إما لما يحدث عنه من شدة الادلال وقد قيل من بسطه الادلال قبضه الاذلال وإما لما يخاف من محنة الرغبة وبلوى المنازعة وقد حكى أن رجلا شاور حكيما في التزوج فقال له افعل واياك والجمال البارع فانه مرعى أنيق فقال الرجل وكيف ذلك قال كما قال الاول

ولن تصادف مرعى ممرعا أبدا * الا وجدت به آثار منتجع

وإما لما يخافه اللبيب من شدة الصبوة ويتوقاه الحازم من سوء عواقب الفتنة وقد قال بعض الحكماء اياك ومخالطة النساء فان لحظ المرأة سهم ولفظها سم . ورأى بعض الحكماء صيادا يكلم امرأة فقال ياصياد احذر أن تصاد . وقال سليمان بن داود عليهما السلام لابنه امش وراء الاسد ولا تمش وراء المرأة وسمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه امرأة تقول هذا البيت

ان النساء رياحين خلقن لكم * وكلكم يشتهي شم الرياحين

فقال رضي الله عنه

ان النساء شياطين خلقن لنا * نعوذ بالله من شر الشياطين

وان كان العقد رغبة في الدين فهو أوثق العقود حالا وأدومها ألفة وأحمدها بدأ وعاقبة لان طالب الدين متبع له ومن اتبع الدين انقاد له فاستقامت

له حاله وأمن زلله ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم فاظفر (١) بذات الدين تربت يداك وفيه تأويلان أحدهما تربت يداك ان لم تظفر بذات الدين والثانى أنها كلمة تذكر للمبالغة ولا يراد بها سوء كقولهم ما أشجعه قاتله الله . وان كان العقد رغبة فى الالفة فهذا يكون على أحد وجهين إما أن يقصد به المكاثرة باجتماع الفريقين والمظافرة بتناصر الفئتين وإما أن يقصد به تألف أعداء متسلطين استكفاء لعاديتهم وتسكينا لصولتهم وهذان الوجهان قد يكونان فى الأماثل وأهل المنازل وداعى الوجه الاول هو الرغبة وداعى الوجه الثانى هو الرهبة وهما سببان فى غير المتناكحين فان استدام السبب دامت الالفة وان زال السبب بزوال الرغبة والرهبة خيف زوال الالفة الا أن ينضم اليها أحد الاسباب الباعثة عليها والمقربة لها . وان كان العقد رغبة فى التعفف فهو الوجه الحقيقى المبتغى بعقد النكاح وماسوى ذلك فأسباب معلقة عليه ومضافة اليه . وروى عطية ابن بشر عن عكاف بن رفاعة الهلالى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له ياعكاف ألك زوجة قال لا قال فأنت اذن من اخوان الشياطين ان كنت من رهبان النصارى فالحق بهم وان كنت منا فمن سنتنا النكاح فكان هذا القول منه حثا على التعفف عن الفساد وباعثا على التكاثر بالأولاد . ولهذا المعنى كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول للفقال من غزوهم اذا أفضيتم الى نسائكم فالكيس الكيس يعنى فى طلب الولد فلزم حينئذ فى عقد التعفف تحكيم الاختيار فيه والتماس الأدوم من دواعيه وهى نوعان نوع يمكن حصر شروطه ونوع لا يمكن لاختلاف أسبابه وتغاير شروطه فأما

(١) الذى تقدم فعليك بذات الدين وكلاهما مروى اه مصححه

الشروط المحصورة فيه فثلاثة شروط أحدها الدين المفضي الى الستر والعفاف والمؤدي الى القناعة والكفاف . قال أبو هريرة رضي الله عنه لا يفرك (١) مؤمن مؤمنة ان كره منها خلقا رضي منها خلقا . وخطب رجل من عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يتيمة كانت عنده فقال لا أرضاها لك قال ولم وفي دارك نشأت قال انها تتشرف قال لا أبالي فقال الآن أرضالك لها وفي معنى هذا قول بعض العلماء من رضي بصحبة من لا خير فيه لم يرض بصحبته من فيه خير والشرط الثاني العقل الباعث على حسن التقدير والأمر بصواب التدبير . فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال العقل حيث كان ألوف ومألوف . وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال عليكم بالودود الولود ولا تنكحوا الحمقاء فان صحبتها بلاء وولدها ضياع . والشرط الثالث الأكفاء الذين ينتفي بهم العار ويحصل بهم الاستكثار . فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال تخيروا لنطفكم ولا تضعوها الا في الأكفاء . وروي أن أكثم بن صيفي قال لولده يا بني لا يحملنكم جمال النساء عن صراحة النسب فان المناكح الكريمة مدرجة للشرف . وقال أبو الاسود الدؤلي لبنيه قد أحسنت اليكم صغارا وكبارا وقبل أن تولدوا قالوا وكيف أحسنت الينا قبل أن نولد قال اخترت لكم من الأمهات من لا تسبون بها وأنشد الرياشي

فأول احساني اليكم تخيري * لماجدة الأعراق بادعفافها

ثم ان السبب الباعث على التزوج لا يخلو من ثلاثة أحوال ( أحدها ) أن

---

(١) بالفاء والراء والكاف أي لا يبغض كما في النهاية وغيرها ووقع في النسخ المطبوعة قبل هذ لا يعذل وهو خطأ اه مصححه

يكون لطلب الولد فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال عليكم بالابكار فانهن أعذب أفواها وأنتق أرحاما وأرضى باليسير ومعنى قوله أنتق أرحاما أى أكثر أولادا . وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه عليكم بالابكار فانهن أكثر حبا وأقل خنا وهذه الحال هى أولى الاحوال الثلاث لان النكاح موضوع لها والشرع وارد بها . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال سوداء ولود خير من حسناء عاقر والعرب تقول فى أمثالها من لا يلد لا ولد وقد كانوا يختارون لمثل هذه الحال نكاح البعداء الاجانب ويرون أن ذلك أنجب للولد وأبهى للخلقة ويجتنبون نكاح الاهل والاقارب ويرونه مضرا بخلق الولد بعيدا من نجابته . روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال أغربوا لا تضووا . وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال يا بنى السائب قد ضويتم فانكحوا فى الغرائب . وقال الشاعر

تجاورت بنت العم وهى حبيبة * مخافة أن يضوى على سليلى

وكانت حكماء المتقدمين يرون أن أنجب الاولاد خلقا وخلقا من كان سن أمه بين العشرين والثلاثين وسن أبيه ما بين الثلاثين والخمسين . والعرب تقول ان ولد الغيرى لا ينجب وان أنجب النساء الفروك وقالوا ان الرجل اذا أكره المرأة وهى مذعورة ثم أذكرت أنجبت (والحالة الثانية) أن يكون المقصود به القيام بما يتولاه النساء من تدبير المنازل فهذا وان كان مختصا بمعاناة النساء فليس يلزم حالتى الزوجات لانه قد يجوز أن يعانيه غيرهن من النساء ولذلك قيل المرأة ريحانه وليست بقهرمانه وليس فى هذا القصد تأثير فى دين ولا قدح فى مروءة والأحمد فى مثل هذا التماس ذوات الاسنان والحنكة ممن قد خبرن تدبير المنازل وعرفن عادات الرجال فانهن أقوم بهذه الحال (والحالة

الثالثة) أن يكون المقصود به الاستمتاع وهى أذم الاحوال الثلاث وأوهنها للمروءة لانه ينقاد فيه لأخلاقه البهيمية ويتابع شهوته الذميمة . وقد قال الحرث بن النضر الازدى شر النكاح نكاح الغلمة الا أن يفعل ذلك لكسر الشهوة وقهرها بالاضعاف لها عند الغلبة أو تسكين النفس عند المنازعة حتى لا تطمح له عين لريبة ولا تنازعه نفس الى فجور ولا يلحقه فى ذلك ذم ولا يناله وصم وهو بالحمد أجدر وبالثناء أحق ولو تنزه فى مثل هذه الحال عن استبذال الحرائر الى الاماء كان أكمل لمروءته وأبلغ فى صيانته وهذه الحال تقف على شهوات النفوس لا يمكن أن يرجح فيها أولى الامور وهى أخطر الاحوال بالمنكوحة لان للشهوات غايات متناهية يزول بزوالها ما كان متعلقا بها فتصير الشهوة فى الابتداء كراهية فى الانتهاء ولذلك كرهت العرب البنات ووأدتهن اشفاقا عليهن وحمية لهن من أن يبتذلهن اللئام بهذه الحال وكان من تحوّب من قتل البنات لرقة ومحبة كان موتهن أحب اليه وآثر عنده . ولما خطب الى عقيل بن علقمة ابنته الجرباء قال

انى وان سيق الىّ المهر * ألف وعبدان وذود عشر * أحب أصهارى الىّ القبر

. وقال عبد الله بن طاهر

لكل أبى بنت يراعى شؤونها * ثلاثة أصهار اذا حمد الصهر

فبعل يراعيها وختر يكنها * وقبر يواريها وأفضلها القبر

﴿ فصل ﴾ وأما المواخاة المحمودة وهى الرابع من أسباب الالفة فلانها تكسب بصادق الميل اخلاصا ومصافاة وتحدث بخالص المصافاة وفاء ومحاماة وهذا أعلى مراتب الالفة وبذلك آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه لتزيد ألفتهم ويقوى تظافرهم وتناصرهم . وروى عن النبى صلى

الله عليه وسلم أنه قال عليكم باخوان الصدق فانهم زينة فى الرخاء وعصمة فى البلاء . وروى أبو الزبير عن سهل بن سعد أن النبى صلى الله عليه وسلم قال المرء كثير بأخيه ولا خير فى صحبة من لا يرى لك من الحق مثل ما ترى له . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لقاء الاخوان جلاء الاحزان . وقال خالد بن صفوان ان أعجز الناس من قصر فى طلب الاخوان وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم . وقال على كرم الله وجهه لابنه الحسن يابنى الغريب من ليس له حبيب . وقال ابن المعتز من اتخذ اخوانا كانوا له أعوانا . وقال بعض الادباء أفضل الذخائر أخ وفى . وقال بعض البلغاء صديق مساعد عضد وساعد . وقال بعض الشعراء

هموم رجال فى أمور كثيرة * وهمى من الدنيا صديق مساعد

نكون كروح بين جسمين قسمت * فقسماهما جسمان والروح واحد

وقيل انما سمى الصديق صديقا لصدقه والعدو عدوا لعدوه عليك . وقال ثعلب انما سمى الخليل خليلا لأن محبته تتخلل القلب فلا تدع فيه خلالا الا ملأته وأنشد الرياشى قول بشار

قد تخللت مسلك الروح منى * وبه سمى الخليل خليلا

والمواخاة فى الناس قد تكون على وجهين . أحدهما أخوة مكتسبة بالاتفاق الجارى مجرى الاضطرار . والثانية مكتسبة بالقصد والاختيار . فأما المكتسبة بالاتفاق فهى أوكد حالا لأنها تنعقد عن أسباب تعود اليها والمكتسبة بالقصد تعقد لها أسباب تنقاد اليها وما كان جاريا بالطبع فهو ألزم مما هو حادث بالقصد ونحن نبدأ بالوجه الاول المكتسب بالاتفاق ثم نعقبه بالوجه الثانى المكتسب بالقصد . أما المكتسب بالاتفاق فله أسباب نبتدئ

بها ثم تنتقل فى غاية أحواله المحدودة الى سبع مراتب ربما استكملتهن وربما وقفت على بعضهن ولكل مرتبة من ذلك حكم خاص وسبب موجب . قال الشاعر

ما هوى إلا له سبب * يبتدى منه وينشعب

فأول أسباب الاخاء التجانس فى حال يجتمعان فيها ويأتلفان بها فان قوى التجانس قوى الائتلاف به وان ضعف كان ضعيفا مالم تحدث علة أخرى يقوى بها الائتلاف وانما كان كذلك لان الائتلاف بالتشاكل والتشاكل بالتجانس فاذا عدم التجانس من وجه انتفى التشاكل من كل وجه ومع انتفاء التشاكل يعدم الائتلاف فثبت أن التجانس وان تنوّع أصل الاخاء وقاعدة الائتلاف . وقد روى يحيى بن سعيد عن عمر عن عائشة رضى الله عنها عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف وهذا واضح وهى بالتجانس متعارفة وبفقده متناكرة وقيل فى منثور الحكم الاضداد لا تتفق والاشكال لا تفترق . وقال بعض الحكماء بحسن تشاكل الاخوان يلبث التواصل ولبعضهم

فلا تحتقر نفسى وأنت خليلها * فكل امرئ يصبو الى من يشاكل

وقال آخر

فقلت أخى قالوا أخ من قرابة * فقلت لهم ان الشكول أقارب

نسيبى فى رأيى وعزمى وهمتى * وان فرقتنا فى الاصول المناسب

ثم يحدث بالتجانس المواصلة بين المتجانسين وهى المرتبة الثانية من مراتب الاخاء وسبب المواصلة بينهما ووجود الاتفاق منهما فصارت المواصلة نتيجة التجانس والسبب فيه وجود الاتفاق لان عدم الاتفاق منفر . وقد قال الشاعر

الناس ان وافقتهم عذبوا * أولا فان جناهم مرّ
كم من رياض لا أنيس بها * تركت لأن طريقها وعر

ثم يحدث عن المواصلة رتبة ثالثة وسببها الانبساط ثم يحدث عن المؤانسة رتبة رابعة وهى المصافاة وسببها خلوص النية ورتبة خامسة وهى المودّة وسببها الثقة وهذه الرتبة هى أدنى الكمال فى أحوال الاخاء وما قبلها أسباب تعود اليها فان اقترن بها المعاضدة فهى الصداقة ثم يحدث عن المودة رتبة سادسة وهى المحبة وسببها الاستحسان فان كان الاستحسان لفضائل النفس حدثت رتبة سابعة وهى الاعظام وان كان الاستحسان للصورة والحركات حدثت رتبة ثامنة وهى العشق وسببه الطمع . وقد قال المأمون رحمه الله تعالى

أوّل العشق مزاح وولع * ثم يزداد اذا زاد الطمع
كل من يهوى وان عالت به * رتبة الملك لمن يهوى تبع

وهذه الرتبة آخر الرتب المعدودة وليس لما جاوزها رتبة مقدّرة ولا حالة محدودة لانها قد تؤدّى الى ممازجة النفوس وان تميزت ذواتها وتفضى الى مخالطة الارواح وان تفارقت أجسادها وهذه حالة لا يمكن حصر غايتها ولا الوقوف عند نهايتها . وقد قال الكندى الصديق انسان هو أنت الا أنه غيرك ومثل هذا القول المروى عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه حين أقطع طلحة ابن عبيد الله أرضا وكتب له بها كتابا وأشهد فيه ناسا منهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه فأتى طلحة بكتابه الى عمر ليختمه فامتنع عليه فرجع طلحة مغضبا الى أبى بكر رضى الله عنه وقال والله ما أدرى أنت الخليفة أم عمر فقال بل عمر لكنه أنا وأما المكتسبة بالقصد فلا بدلها من داع يدعو اليها وباعث

يبعث عليها وقد يكون الداعى اليها من وجهين رغبة ورفاقة فأما الرغبة فهى أن يظهر من الانسان فضائل تبعث على إخائه ويتوسم بجميل يدعو الى اصطفائه وهذه الحالة أقوى من التى بعدها لظهور الصفات المطلوبة من غير تكلف لطلبها وانما يخاف عليها من الاغترار بالتصنع لها فليس كل من أظهر الخير كان من أهله ولا كل من تخلق بالحسنى كانت من طبعه والمتكلف للشئ مناف له الا أن يدوم عليه مستحسنا له فى العقل أو متدينا به فى الشرع فيصير متطبعا به لا مطبوعا عليه لانه قد تقدم من كلام الحكماء ليس فى الطبع أن يكون ما ليس فى التطبع ثم نقول من المتعذر أن تكون أخلاق الفاضل كاملة بالطبع وانما الأغلب أن يكون بعض فضائله بالطبع وبعضها بالتطبع الجارى بالعادة مجرى الطبع حتى يصير ما تطبع به فى العادة أغلب عليه مما كان مطبوعا عليه اذا خالف العادة ولذلك قيل العادة طبع ثان . وقال ابن الرومى رحمه الله

واعلم بأن الناس من طينة * يصدق فى الثلب لها الثالب
لولا علاج الناس أخلاقهم * اذن لفاح الحمأ اللازب

وأما الرفاقة فهى أن يفتقر الانسان لوحشة انفراده ومهانة وحدته الى اصطفاء من يأنس بمواخاته ويثق بنصرته وموالاته . وقد قالت الحكماء من لم يرغب فى ثلاث بلى بست من لم يرغب فى الاخوان بلى بالعداوة والخذلان ومن لم يرغب فى السلامة بلى بالشدائد والامتهان ومن لم يرغب فى المعروف بلى بالندامة والخسران ولعمرى إن اخوان الصدق من أنفس الذخائر وأفضل العدد لأنهم سهماء النفوس وأولياء النوائب . وقد قالت الحكماء رب صديق أود من شقيق . وقيل لمعاوية أيما أحب اليك

قال صديق يحببنى الى الناس . وقال ابن المعتز القريب بعداوته بعيد والبعيد بمودته قريب وقال الشاعر

لمودة ممن يحبك مخلصا * خير من الرحم القريب الكاشح

وقال آخر

يخونك ذو القربى مرارا وربما * وفى لك عند العهد من لا تناسبه

فاذا عزم على اصطفاء الاخوان سبر أحوالهم قبل إخائهم وكشف عن أخلاقهم قبل اصطفائهم لما تقدم من قول الحكماء اسبر تخبر ولا تبعثه الوحدة على الاقدام قبل الخبرة ولا حسن الظن على الاغترار بالتصنع فان الملق مصايد العقول والنفاق تدليس القطن وهما سجيتا المتصنع وليس فيمن يكون النفاق والملق بعض سجاياه خير يرجى ولا اصلاح يؤمل ولأجل ذلك قالت الحكماء اعرف الرجل من فعله لا من كلامه واعرف محبته من عينه لا من لسانه . وقال خالد بن صفوان انما نفقت عند اخوانى لأنى لم أستعمل معهم النفاق ولا قصرت بهم عن الاستحقاق . وقال حماد

كم من أخ لك ليس تنكره * ما دمت فى دنياك فى يسر
متصنع لك فى مودته * يلقاك بالترحيب والبشر
فاذا عدا والدهر ذو غير * دهر عليك عدا مع الدهر
فارفض بأجمال مودة من * يقلى المقل ويعشق المثرى
وعليك من حالاه واحدة * فى العسر إما كنت واليسر

على أن الانسان موسوم بسيماء من قارب ومنسوب اليه أفاعيل من صاحب . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم المرء مع من أحب . وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه الصاحب مناسب . وقال عبد الله بن مسعود رضى

الله عنه مامن شئ أدل على شئ ولا الدخان على النار من الصاحب على الصاحب . وقال بعض الحكماء اعرف أخاك بأخيه قبلك . وقال بعض الادباء يظن بالمرء ما يظن بقرينه . وقال عدى بن زيد

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه * فكل قرين بالمقارن يقتدى

اذا كنت فى قوم فصاحب خيارهم * ولا تصحب الأردى فتردى مع الردى

فلزم من هذا الوجه أيضا أن يتحرز من دخلاء أهل السوء ويجانب أهل الريب ليكون موفور العرض سليم الغيب فلا يلام بملامة غيره ولهذا قيل التثبت والارتياء ومداومة الاختبار والابتلاء متعذر بل مفقود وقد ضرب ذو الرمة مثلا بالماء فيمن حسن ظاهره وخبث باطنه فقال

ألم تر أن الماء يخبث طعمه * وان كان لون الماء أبيض صافيا

ونظر بعض الحكماء الى رجل سوء حسن الوجه فقال أما البيت فحسن وأما الساكن فردىء فأخذ لحظة هذا المعنى فقال

رب ما أبين التباين فيه * منزل عامر وعقل خراب

وأنشدنى بعض أهل العلم

لا تركنن الى ذى منظر حسن * فرب رائعة قدساء مخبرها

ما كل أصفر دينار لصفرته * صفر العقارب أرداها وأنكرها

ثم قد تقدم من قول الحكماء من لم يقدم الامتحان قبل الثقة والثقة قبل الانس أثمرت مودته ندما . وقال بعض البلغاء مصارمة قبل اختبار أفضل من مواخاة على اغترار . وقال بعض الادباء لا تثق بالصديق قبل الخبره ولا تقع بالعدو قبل القدره وقال بعض الشعراء

لا تحمدن امرأ حتى تجربه * ولا تذمنه من غير تجريب

فمدلك المرء مالم تبله خطأ * وذمك المرء بعد الحمد تكذيب

فاذا قد لزم من هذين الوجهين سبر الاخوان قبل إخائهم وخبرة أخلاقهم قبل اصطفائهم فالخصال المعتبرة فى اخائهم بعد المجانسة التى هى أصل الاتفاق أربع خصال

﴿ فالخصلة الاولى ﴾ عقل موفور يهدى الى مراشد الأمور فان الحمق لا تثبت معه مودة ولا تدوم لصاحبه استقامة . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «البذاء لؤم وصحبة الاحمق شؤم» وقال بعض الحكماء عداوة العاقل أقل ضررا من مودة الاحمق لأن الاحمق ربما ضر وهو يقدر أن ينفع والعاقل لا يتجاوز الحد فى مضرته فمضرته لها حد يقف عليه العقل ومضرة الجاهل ليست بذات حد والمحدود أقل ضررا مما هو غير محدود وقال المنصور للمسيب بن زهير ما مادة العقل فقال مجالسة العقلاء . وقال بعض البلغاء من الجهل صحبة ذوى الجهل ومن المحال مجادلة ذوى المحال وقال بعض الادباء من أشار عليك باصطناع جاهل أو عاجز لم يخل أن يكون صديقا جاهلا أو عدوا عاقلا لأنه يشير بما يضرك ويحتال فيما يضع منك وقال بعض الشعراء

اذا ما كنت متخذا خليلا * فلا تثقن بكل أخى إخاء
فان خبرت بينهم فألصق * بأهل العقل منهم والحياء
فان العقل ليس له اذاما * تفاضلت الفضائل من كفاء

﴿ والخصلة الثانية ﴾ الدين الواقف بصاحبه على الخيرات فان تارك الدين عدو لنفسه فكيف يرجى منه مودة غيره . وقال بعض الحكماء اصطف من الاخوان ذا الدين والحسب والرأى والادب فانه ردء لك عند حاجتك

ويد عند نائبتك وأنس عند وحشتك وزين عند عافيتك . وقال حسان ابن ثابت رضى الله عنه

أخلاء الرخاء هم كثير * ولكن فى البلاء هم قليل
فلا يغررك خلة من تواخى * فما لك عند نائبة خليل
وكل أخ يقول أنا وفى * ولكن ليس يفعل ما يقول
سوى خل له حسب ودين * فذاك لما يقول هو الفعول

وقال آخر

من لم تكن فى الله خلته * فقليله منه على خطر

﴿والخصلة الثالثة﴾ أن يكون محمود الاخلاق مرضى الفعال مؤثرا للخير آمرا به كارها للشر ناهيا عنه فان مودة الشرير تكسب العداء وتفسد الاخلاق ولا خير فى مودة تجلب عداوة وتورث مذمة وملامة فان المتبوع تابع صاحبه . وقال عبيد الله بن المعتز اخوان الشر كشجر النار فمن يحرق بعضه بعضا . وقال بعض الحكماء مخالطة الاشرار على خطر والصبر على صحبتهم كركوب البحر الذى من سلم منه ببدنه من التلف فيه لم يسلم بقلبه من الحذر منه . وقال بعض البلغاء صحبة الاشرار تورث سوء الظن بالاخيار . وقال بعض البلغاء من خير الاختيار صحبة الاخيار ومن شر الاختيار صحبة الاشرار . وقال بعض الشعراء

مجالسة السفيه سفاه رأى * ومن عقل مجالسة الحكيم
فانك والقرين معاش * كماق الأديم من الأديم

﴿والخصلة الرابعة﴾ أن يكون من كل واحد منهما ميل الى صاحبه ورغبة فى مواخاته فان ذلك أوكد لحال المواخاة وأمد لاسباب المصافاة اذ ليس

كل مطلوب اليه طالب ولا كل مرغوب اليه راغب ومن طلب مودة ممتنع عليه ورغب الى زاهد فيه كان معنى خائبا كما قال البحترى

وطلبت منك مودة لم أعطها * ان المعنى طالب لا يظفر

وقال العباس بن الاحنف

فان كان لا يدنيك الا شفاعة * فلا خير فى ود يكون بشافع
وأقسم ما تركى عتابك عن قلى * ولكن لعلمى أنه غير نافع
وانى اذا لم ألزم الصبر طائعا * فلا بد منه مكرها غير طائع

فاذا استكملت هذه الخصال فى انسان وجب اخاؤه وتعين اصطفاؤه وبحسب وفورها فيه يجب أن يكون الميل اليه والثقة به وبحسب ما يرى من غلبة احداها عليه يجعل مستعملا فى الخلق الغالب عليه فان الاخوان على طبقات مختلفة وأنحاء متشعبة ولكل واحد منهم حال يختص بها فى المشاركة وثلة يسدها فى الموازرة والمظافرة وليس تتفق أحوال جميعهم على حد واحد لان التباين فى الناس غالب واختلافهم فى الشيم ظاهر . وقال بعض الحكماء الرجال كالشجر شرابه واحد وثمره مختلف فأخذ هذا المعنى منصور بن اسمعيل فقال

بنو آدم كالنبت * ونبت الارض ألوان
فمنهم شجر الصندل والكافور والبان
ومنهم شجر أفضل ما يحمل قطران

ومن رام اخوانا تتفق أحوال جميعهم رام متعذرا بل لو اتفقوا لكان ربما وقع به خلل فى نظامه اذ ليس الواحد من الاخوان يمكن الاستعانة به فى كل حال ولا المجبولون على الخلق الواحد يمكن أن يتصرفوا فى جميع الاعمال

وانما بالاختلاف يكون الائتلاف . وقد قال بعض الحكماء ليس بلبيب من لم يعاشر بالمعروف من لم يجد من معاشرته بدا . وقال المأمون الاخوان ثلاث طبقات طبقة كالغذاء لا يستغنى عنه وطبقة كالدواء يحتاج اليه أحيانا وطبقة كالداء لا يحتاج اليه أبدا . ولعمرى ان الناس على ما وصفهم ولكن ليس من كان منهم كالداء من الاخوان المعدودين بل هم من الاعداء المحذورين وانما يداجون المودة استكفافا لشرهم وتحرزا من مكاشفتهم فدخلوا فى عداد الاخوان بالمظاهرة والمساتره وفى الاعداء عند المكاشفة والمجاهره . قال بعض الحكماء مثل العدو الضاحك اليك كالحنظلة الخضراء أوراقها القاتل مذاقها . وقد قيل فى منثور الحكم لا تغترر بقارب العدو فانه كالماء الذى ان أطيل اسخانه بالنار لم يمنع من اطفائها . وقال يزيد بن الحكم الثقفى

تكاشرنى ضحكا كأنك ناصح * وعينك تبدى أن صدرك لى دوى
لسانك معسول ونفسك علقم * وشرك مبسوط وخيرك ملتوى
فليت كفافا كان خيرك كله * وشرك عنى ما ارتوى الماء مرتوى

فاذا خرج من كان كالداء من عداد الاخوان فالاخوان هم الصنفان الآخران من كان منهم كالغذاء أو كالدواء لان الغذاء قوام للنفس وحياتها والدواء علاجها وصلاحها وأفضلهما من كان كالغذاء لان الحاجة اليه أعم واذا تميز الاخوان وجب أن ينزل كل منهم حيث نزلت به أحواله اليه واستقرت خصاله وخلاله عليه فمن قويت أسبابه قويت الثقة به وبحسب الثقة به يكون الركون اليه والتعويل عليه وقال الشاعر

ما أنت يا السبب الضعيف وانما * نجح الامور بقوة الاسباب
فاليوم حاجتنا اليك وانما * يدعى الطبيب لشدة الاوصاب

وقد اختلفت مذاهب الناس فى اتخاذ الاخوان . فمنهم من يرى أن الاستكثار منهم أولى ليكونوا أقوى منعة ويدا وأوفر تحببا وتودد وأكثر تعاونا وتفقدا . وقيل لبعض الحكماء ما العيش قال اقبال الزمان وعز السلطان وكثرة الاخوان . وقيل حلية المرء كثرة اخوانه . ومنهم من يرى أن الاقلال منهم أولى لأنه أخف أثقالا وكلفا وأقل تنازعا وخلفا . وقال الاسكندر المستكثر من الاخوان من غير اختيار كالمستوفر من الحجارة والمقل من الاخوان المتخير لهم كالذى يتخير الجوهر . وقال عمرو بن العاص من كثر اخوانه كثر غرماؤه . وقال ابراهيم بن العباس مثل الاخوان كالنار قليلها ينفع وكثيرها بوار . ولقد أحسن ابن الرومى فى هذا المعنى ونبه على العلة حيث يقول

عدوك من صديقك مستفاد * فلا تستكثرن من الصحاب
فان الداء أكثر ما تراه * يكون من الطعام أو الشراب
ودع عنك الكثير فكم كثير * يعاف وكم قليل مستطاب
فما اللجج الملاح بمرويات * وتلقى الرى فى النطف العذاب

وقال بعض البلغاء ليكن غرضك فى اتخاذ الاخوان . واصطناع النصحاء تكثير العدة لا تكثير العدد وتحصيل النفع لا تحصيل الجمع فواحد يحصل به المراد خير من ألف تكثر الاعداد

واذا كان التجانس والتشاكل من قواعد الاخوة وأسباب المودة كان وفور العقل وظهور الفضل يقتضى من حال صاحبه قلة اخوانه لأنه يروم مثله

ويطلب شكله وأمثاله من ذوى العقل والفضل أقل من أضداده من ذوى الحمق والنقص لأن الخيار فى كل جنس هو الاقل فلذلك قل وجود العقل والفضل * وقد قال الله تعالى «ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون» فقل بهذا التعليل اخوان أهل الفضل لقلتهم وكثر اخوان ذوى النقص والجهل لكثرتهم . وقد قال فى ذلك الشاعر

لكل امرئ شكل من الناس مثله * فأكثرهم شكلا أقلهم عقلا
وكل أناس آلفون لشكلهم * فأكثرهم عقلا أقلهم شكلا
لان كثير العقل ليست بواجد * له فى طريق حين يسلكه مثلا
وكل سفيه طائش ان فقدته * وجدت له فى كل ناحية عدلا

واذا كان الامر على ما وصفنا فقد تنقسم أحوال من دخل فى عدد الاخوان أربعة أقسام منهم من يعين ويستعين ومنهم من لا يعين ولا يستعين ومنهم من يستعين ولا يعين ومنهم من يعين ولا يستعين * فاما المعين والمستعين فهو معاوض منصف يؤدى ما عليه ويستوفى ماله فهو كالمقرض يسعف عند الحاجة ويسترد عند الاستغناء وهو مشكور فى معونته ومعذور فى استعانته فهذا أعدل الاخوان * وأما من لا يعين ولا يستعين فهو متروك قد منع خيره وقمع شره فهو لا صديق يرجى ولا عدو يخشى * وقد قال المغيرة بن شعبة رضى الله عنه التارك للاخوان متروك واذ كان كذلك فهو كالصورة الممثلة بر وقك حسنها ويخونك نفعها فلا هو مذموم لقمع شره ولا هو مشكور لمنع خيره وان كان بالذم أجدر . وقد قال الشاعر

وأسوأ أيام الفتى يوم لا يرى * له أحد يزرى عليه وينكر

غير أن فساد الوقت وتغير أهله يوجب شكر من كان شره مقطوعا وان كان خيره ممنوعا كما قال المتنبى

إنا لفى زمن ترك القبيح به * من أكثر الناس احسان واجمال

وأما من يستعين ولا يعين فهو لئيم كل ومهين مستذل قد قطع عنه الرغبه وبسط فيه الرهبه فلا خيره يرجى ولا شره يؤمن وحسبك مهانة من رجل مستثقل عند اقلاله ويستقل عند استقلاله فليس لمثله فى الاخاء حظ ولا فى الوداد نصيب وهو ممن جعله المأمون من داء الاخوان لا من دوائهم ومن سمهم لا من غذائهم . وقال بعض الحكماء شر ما فى الكريم أن يمنعك خيره وخير ما فى اللئيم أن يكف عنك شره . وقال ابن الرومى

عذرنا النخل فى ابداء شوك * يرد به الانامل عن جناه

فما للعوسج الملعون أبدى * لنا شوكا بلا ثمر نراه

وأما من يعين ولا يستعين فهو كريم الطبع مشكور الصنع وقد حاز فضيلتى الابتداء والاكتفاء فلا يرى ثقيلا فى نائبة ولا يقعد عن نهضة فى معونة فهذا أشرف الاخوان نفسا وأكرمهم طبعا فينبغى لمن أوجد له الزمان مثله (وقل أن يكون له مثل لانه البر الكريم والدر اليتيم) أن يبتنى عليه خنصره ويعض عليه بناجذه ويكون به أشد ضنا منه بنفائس أمواله وأسنى ذخائره لان نفع الاخوان عام ونفع المال خاص ومن كان أعم نفعا فهو بالادخار أحق . وقال الفرزدق

يمضى أخوك فلا تلفى له خلفا * والمال بعد ذهاب المال مكتسب

وقال اخر

لكل شئ عدمته عوض * وما لفقد الصديق من عوض

ثم لا ينبغي أن يزهد فيه لخلق أو خلقين ينكرهما منه اذا رضي سائر أخلاقه وجداً كثير شيمه لان اليسير مغفور والكمال معوز . وقد قال الكندي كيف تريد من صديقك خلقا واحدا وهو ذو طبائع أربع مع أن نفس الانسان التي هي أخص النفوس به ومدبرة باختياره وارادته لا تعطيه قيادها في كل ما يريد ولا تجيبه الى طاعته في كل ما يحب فكيف بنفس غيره وحسبك أن يكون لك من أخيك أكثره . وقد قال أبو الدرداء رضي الله عنه معاتبة الاخ خير من فقده ومن لك بأخيك كله فأخذ الشعراء هذا المعنى فقال أبو العتاهية

أأخي من لك من بني الدنيا بكل أخيك من لك
فاستبق بعضك لا يملك كل من أعطيت كلك

وقال أبو تمام الطائي

ما غبن المغبون مثل عقله * من لك يوما بأخيك كله

وقال بعض الحكماء طلب الانصاف من قلة الانصاف . وقال بعض البلغاء لا يزهدنك في رجل حمدت سيرته وارتضيت وتيرته وعرفت فضله و بطنت عقله عيب خفي تحيط به كثرة فضائله أو ذنب صغير تستغفر له قوة وسائله فانك لن تجد ما بقيت مهذبا لا يكون فيه عيب ولا يقع منه ذنب فاعتبر بنفسك بعد أن لا تراها بعين الرضا ولا تجري فيها على حكم الهوى فان في اعتبارك بها واختبارك لها ما يؤيسك مما تطلب و يعطفك على من يذنب

وقد قال الشاعر

ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها * كفى المرء نبلا أن تعد معايبه

وقال النابغة الذبيانى

ولست بمستبق أخا لا تلمه * على شعث أى الرجال المهذب

وليس ينقض هذا القول ما وصفنا من اختباره واختبار الخصال الاربع فيه لان ما أعوز فيه معفو عنه وهذا لا ينبغى أن توحشك فترة تجدها منه ولا أن تسىء الظن فى كبوة تكون منه ما لم تتحقق تغيره وتتيقن تنكره وليصرف ذلك الى فترات النفوس واستراحات الخواطر فان الانسان قد يتغير عن مراعاة نفسه التى هى أخص النفوس به ولا يكون ذلك من عداوة لها ولا ملل منها . وقد قيل فى منثور الحكم لا يفسدنك الظن على صديق قد أصلحك اليقين له . وقال جعفر بن محمد لابنه يا بنى من غضب من اخوانك ثلاث مرات فلم يقل فيك سوءا فاتخذه لنفسك خلا . وقال الحسن بن وهب من حقوق المودة أخذ عفو الاخوان والاغضاء عن تقصيران كان . وقد روى عن على رضى الله عنه فى قوله تعالى فاصفح الصفح الجميل قال الرضا بغير عتاب . وقال ابن الرومى

هم الناس والدنيا ولا بد من قذى * يلم بعين أو يكدر مشربا

ومن قلة الانصاف أنك تبتغى الـ * ـمهذب فى الدنيا ولست المهذبا

وقال بعض الشعراء

تواصلنا على الايام باق * ولكن هجرنا مطر الربيع

يروعك صوبه لكن تراه * على علاته دانى النزوع

معاذ الله أن نلفى غضابا * سوى دل المطاع على المطيع

وأنشدنى الازدى

لا يؤيسنك من صديق نبوة * ينبو الفتى وهو الجواد المخضرم
فاذا نبا فاستبقه وتأنه * حتى تفيء به وطبعك أكرم

وأما الملول وهو السريع التغير الوشيك التنكر فوداده خطر واخاؤه غرر لانه لا يبقى على حاله ولا يخلو عن استحاله . وقد قال ابن الرومي

اذا أنت عاتبت الملول فانما * تخط على صحف من الماء أحرفا
وهبه ارعوى بعد العتاب ألم تكن * مودته طبعا فصارت تكلفا

وهم نوعان منهم من يكون مله استراحة ثم يعود الى المعهود من اخائه فهذا أسلم الملين وأقرب الرجلين يساعج في وقت استراحته وحين فترته ليرجع الى الحسنى ويؤب الى الاخاء وان تقدم المثل بما نظمه الشاعر حيث قال

وقالوا يعود الماء في النهر بعدما * عفت منه آثار وجفت مشارعه
فقلت الى أن يرجع الماء عائدا * ويعشب شطاه تموت ضفادعه

لكن لا يطرح حقه بالتوهم ولا يسقط حرمته بالظنون . وقال الشاعر

اذا ما حال عهد أخيك يوما * وحاد عن الطريق المستقيم
فلا تعجل بلومك واستدمه * فان أخا الحفاظ المستديم
فان تك زلة منه والا * فلا تبعد عن الخلق الكريم

ومنهم من يكون مله تركا واطراحا ولا يراجع اخاء ولا ودا ولا يتذكر خفاظا ولا عهدا كما قال أشجع بن عمرو السلمي

انى رأيت لها مواصلة * كالسم تفرغه على الشهد
فاذا أخذت بعهد ذمتها * لعب الصدود بذلك العهد

وهذا أذم الرجلين حالا لان مودته من وساوس الخطرات وعوارض الشهوات وليس الا استدراك الحال معه بالاقلاع قبل المخالطة وحسن المتاركة بعد الورطة كما قال العباس بن الاحنف

تداركت نفسى فعزيتها * وبغضتها فيك امالها
وما طابت النفس عن سلوة * ولكن حملت عليها لها

ومامثل من هذه حاله الا كما قد قال ابراهيم بن هَرْمة

فانك واطراحك وصل سلمى * لأخرى فى مودتها نكوب
كثاقبة لحلى مستعار * لأذنيها فشانهما الثقوب
فأدت حلى جارتها اليها * وقد بقيت بأذنيها ندوب

واذا صفت له أخلاق من سبره وتمهدت لديه أحوال من خبره وأقدم على اصطفائه أخا وعلى اتخاذه خدنا لزمته حينئذ حقوقه ووجبت عليه حرماته وقال عمرو بن مسعدة العبودية عبودية الاخاء لا عبودية الرق . وقال بعض الحكماء من جاد لك بمودته فقد جعلك عديل نفسه فأول حقوقه اعتقاد مودته ثم ايناسه بالانبساط اليه فى غير محرّم ثم نصحه فى السر والعلانية ثم تخفيف الانثقال عنه ثم معاونته فيما ينوبه من حادثة أو يناله من نكبة فان مراقبته فى الظاهر نفاق وتركه فى الشدة لؤم . وقد قيل يارسول الله أى الاصحاب خير قال الذى اذا ذكرت أعانك و واسالك وخير منه من اذا نسيت ذكرك وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه خير اخوانك من واسالك وخير منه من كفالك . وكان أبو هريرة رضى الله عنه يقول اللهم انى أعوذ بك ممن لا يلتمس خالص مودتى الا بموافقة شهوتى وممن ساعدنى على سرورساعتى ولا يفكر فى حوادث غدى . وقال

بعض البلغاء عقود الغادر محلوله وعهوده مدخوله . وقال بعض البلغاء ماودك من أهمل ودك ولا أحبك من أبغض حبك . وقال بعض الشعراء

وكل أخ عند الهوينا ملاطف * ولكنما الاخوان عند الشدائد

وقال صالح بن عبد القدوس شر الاخوان من كانت مودته مع الزمان اذا أقبل فاذا أدبر الزمان أدبر عنك فأخذ هذا المعنى الشاعر فقال

شر الاخلاء من كانت مودته * مع الزمان اذا ما خاف أو رغبا
اذا وترت امرأ فاحذر عداوته * من يزرع الشوك لا يحصد به عنبا
ان العدو وان أبدى مسالمة * اذا رأى منك يوما فرصة وثبا

وينبغي أن يتوقى الافراط في محبته فان الافراط داع الى التقصير ولأن تكون الحال بينهما ناميه أولى من أن تكون متناهيه . وقد روى ابن سيرين عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أحبب حبيبك هونا ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما وأبغض بغيضك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما » . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا يكن حبك كلفا ولا بغضك تلفا . وقال أبو الأسود الدؤلي

وكن معدنا للخير واصفح عن الاذى * فانك راء ما عملت وسامع
وأحبب اذا أحببت حبا مقاربا * فانك لا تدري متى أنت نازع
وأبغض اذا أبغضت غير مباين * فانك لا تدري متى أنت راجع

وقال عدي بن زيد

لا تأمنن من مبغض قرب داره * ولا من محب أن يميل فيبعدا

وانما يلزم من حق الاخاء بذل المجهود في النصح والتناهي في رعاية ما بينهما

من الحق فليس فى ذلك افراط وان تناهى ولا مجاوزة حد وان أكثر وأوفى فتستوى حالتاهما فى المغيب والمشهد ولا يكون مغيبهما أفضل من مشهدهما وأولى فانّ فضل المشهد على المغيب لؤم وفضل المغيب على المشهد كرم واستواؤهما حفاظ . وقال بعض الشعراء

على ّ لاخوانى رقيب من الصفا * تبيد الليالى وهو ليس يبيد
يذكرنيهم فى مغيبى ومشهدى * فسيان منهم غائب وشهيد
و إنى لأستحيى أخى أن أبرّه * قريبا وأن أجفوه وهو بعيد

وهكذا يقصد التوسط فى زيارته وغشيانه غير مقلل ولا مكثر فان تقليل الزيارة داعية الهجران وكثرتها سبب الملال . وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم لأبى هريرة رضى الله عنه يا أبا هريرة «زر غبا تزدد حبا» وقال لبيد

توقف عن زيارة كل يوم * اذا أكثرت ملك من تزور

وقال آخر

أقلل زيارتك الصديق ولا تطل * هجرانه فيلج فى هجرانه
انّ الصديق يلج فى غشيانه * لصديقه فيمل من غشيانه
حتى يراه بعد طول سروره * بمكانه متثاقلا بمكانه
واذا توانى عن صيانة نفسه * رجل تنقص واستخف بشانه

وبحسب ذلك فليكن فى عتابه فان كثرة العتاب سبب للقطيعة واطراح جميعه دليل على قلة الاكتراث بأمر الصديق وقد قيل علة المعاداة قلة المبالاة بل تتوسط حالتا تركه وعتابه فيسامح بالمتاركة ويستصلح بالمعاتبة فان المسامحة والاستصلاح اذا اجتمعا لم يلبث معهما نفور ولم يبق معهما وجد . وقد قال بعض الحكماء لا تكثرن معاتبة اخوانك فيهونون عليهم سخطك . وقال منصور النمرى

أقلل عتاب من استربت بوده * ليست تنال مودة بعتاب

وقال بشار بن برد

اذا كنت فى كل الامور معاتبا * صديقك لم تلق الذى لا تعاتبه
وان أنت لم تشرب مرارا على القذى * ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه
فعش واحدا أو صل أخاك فانه * مقارف ذنب مرة ومجانبه

ثم من حق الاخوان أن تغفر هفواتهم وتسترزلتهم لأن من رام بريئا من الهفوات سليما من الزلات رام أمرا معوزا واقترح وصفا معجزا . وقد قالت الحكماء أى عالم لا يهفو وأى صارم لا ينبو وأى جواد لا يكبو . وقالوا من حاول صديقا يأمن زلته ويدوم اغتباطه به كان كضال الطريق الذى لا يزداد لنفسه إتعابا إلا ازدادا من غايته بعدا . وقيل لخالد بن صفوان أى الاخوان أحب اليك قال من غفر زللى وقطع على وبلغنى أملى . وقال بعض الشعراء

ما كدت أفيس عن أخى ثقة * ألا ندمت عواقب الفحص

وأنشدت عن الربيع للشافعى رضى الله عنه

أحب من الاخوان كل موات * وكل غضيض الطرف عن عثراتى
يوافقنى فى كل أمر أريده * ويحفظنى حيا وبعد وفاتى
فمن لى بهذا ليت أنى أصبته * فقاسمته مالى من الحسنات
تصفحت اخوانى وكان أقلهم * على كثرة الاخوان أهل ثقاتى

وأنشد ثعلب

اذا أنت لم تستقلل الامر لم تجد * بكفيك فى ادباره متعلقا
إذا أنت لم تترك أخاك وزلة * اذا زلها أوشكتما أن تفرقا

وحكى الاصمعى عن بعض الأعراب أنه قال تناس مساوى الاخوان يدم لك وذهم . ووصى بعض الأدباء أخاله فقال كن للود حافظا وان لم تجد محافظا والخل واصلا وإن لم تجد مواصلا وقال رجل من إياد ليزيد ابن المهلب

اذا لم تجاوز عن أخ عند زلة * فلست غدا عن عثرتى متجاوزا
وكيف يرجيك البعيد لنفعه * اذا كان عن مولاك خيرك عاجزا
ظلمت أخا كلفته فوق وسعه * وهل كانت الاخلاق الا غرائزا

وقال أبو مسعود كاتب الرضى كنا فى مجلس الرضى فشكا رجل من أخيه فأنشد الرضى

اعذر أخاك على ذنوبه * واستر وغض على عيوبه
واصبر على بهت السفيـ * ـه وللزمان على خطوبه
ودع الجواب تفضلا * وكل الظلوم الى حسيبه
واعلم بأن الحلم عند الغيظ أحسن من ركوبه

وحكى عن بنت عبد الله بن مطيع أنها قالت لزوجها طلحة بن عبد الرحمن بن عوف الزهرى وكان أجود قريش فى زمانه ما رأيت قوما ألأم من اخوانك قال مه ولم ذلك قالت أراهم اذا أيسرت لزموك واذا أعسرت تركوك قال هذا والله من كرمهم يأتوننا فى حال القوة بنا عليهم ويتركوننا فى حال الضعف منا عنهم فانظر كيف تأول بكرمه هذا التأويل حتى جعل قبيح فعلهم حسنا وظاهر غدرهم وفاء وهذا محض الكرم ولباب الفضل ومثل هذا يلزم ذوى الفضل أن يتأولوا الهفوات من اخوانهم . وقد قال بعض الشعراء

اذا ما بدت من صاحب لك زلة * فكن أنت محتالا لزلته عذرا
أحب الفتى ينفى الفواحش سمعه * كأن به عن كل فاحشة وقرا
سليم دواعى الصدر لا باسط أذى ولا مانع خيرا ولا قائل هجرا

والداعى الى هذا التأويل شيآن التغافل الحادث عن الفطنة والتألف الصادر عن الوفاء . وقال بعض الحكماء وجدت أكثر أمور الدنيا لا تجوز إلا بالتغافل . وقال أكثم بن صيفى من شدد نفر ومن تراخى تألف والشرف فى التغافل . وقال شبيب بن شيبة الاريب العاقل هو الفطن المتغافل وقال الطائى

ليس الغبى بسيد فى قومه * لكن سيد قومه المتغابى

وقال أبو العتاهية

ان فى صحة الاخاء من النا * س وفى خلة الوفاء لقله
فالبس الناس ما استطعت على النق * ص والالم تستقم لك خله
عش وحيدا ان كنت لا تقبل العذ * روان كنت لا تجاوز زله
من أب واحد وأم خلقنا * غير أنا فى المال أولاد علله

ومما يتبع هذا الفصل تألف الاعداء بما يثنيهم عن البغضاء ويعطفهم على المحبة وذلك قد يكون بصنوف من البر ويختلف بسبب اختلاف الاحوال فان ذلك من سمات الفضل وشروط السودد فانه ما أحد يعدم عدوا ولا يفقد حاسدا وبحسب قدر النعمة تكثر الاعداء والحسدة كما قال البحترى

ولن تستبين الدهر موضع نعمة * اذا أنت لم تدلل عليها بحاسد

فان أغفل تألف الاعداء مع وفور النعمة وظهور الحسدة توالى عليه من مكر

حليمهم وبادرة سفيههم ماتصير به النعمة غراما والزعامة ملاما . وروى ابن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رأس العقل بعد الايمان بالله تعالى التودد إلى الناس » . وقال سليمن بن داود عليهما السلام لابنه لاتستكثر أن يكون لك ألف صديق فالألف قليل ولاتستقل أن يكون لك عدو واحد فالواحد كثير فنظم ابن الرومي هذا المعنى فقال

تكثر من الاخوان ما اسطعت انهم * بطون اذا استنجدتهم وظهور
وليس كثيرا ألف خل وصاحب * وانّ عدوا واحدا لكثير

وقيل لعبد الملك بن مروان ما أفدت في ملكك هذا قال مودة الرجال . وقال بعض الحكماء من علامة الاقبال اصطناع الرجال . وقال بعض البلغاء من استصلح عدوه زاد في عدده ومن استفسد صديقه نقص من عدده . وقال بعض الادباء العجب ممن يطرح عاقلا كافيا لما يضمره من عداوته و يصطنع عاجزا جاهلا لما يظهره من محبته وهو قادر على استصلاح من يعاديه بحسن صنائعه وأياديه وأنشد عبد الله بن الزبير ثلاثة أبيات جامعة لكل ما قالته العرب وهي للافوه واسمه صلة بن عمرو حيث يقول

بلوت الناس قرنا بعد قرن * فلم أر غير ختال وقالى
وذقت مرارة الاشياء جمعا * فما طعم أمرّ من السؤال
ولم أر في الخطوب أشدّ هولا * وأصعب من معاداة الرجال

وقال القاضي التنوخي

الق العدو بوجه لا قطوب به * يكاد يقطر من ماء البشاشات

فأحزم الناس من يلقى أعاديه * فى جسم حقد وثوب من مودّات
الرفق يمن وخير القول أصدقه * وكثرة المزح مفتاح العداوات

وأنشدت عن الربيع للشافعى رضى الله تعالى عنه

لما عفوت ولم أحقد على أحد * أرحت نفسى من هم العداوات
إنى أحيى عدوى عند رؤيته * لأدفع الشرّ عنى بالتحيات
وأظهر البشر للانسان أبغضه * كأنما قد حشا قلبى محبات
الناس داء دواء الناس قربهم * وفى اعتزالهم قطع المودّات

وليس وان كان بتأليف الاعداء مأمورا و إلى مقاربتهم مندوبا ينبغى أن يكون لهم راكنا و بهم واثقا بل يكون منهم على حذر ومن مكرهم على تحرز فان العداوة اذا استحكمت فى الطباع صارت طبعا لا يستحيل وجبلة لا تزول وانما يستكفى بالتألف اظهارها و يستدفع به اضرارها كالنار يستدفع بالماء احراقها و يستفاد به انضاجها وان كانت محرقة بطبع لا يزول وجوهر لا يتغير . وقال الشاعر

واذا عجزت عن العدو فداره * وامزح له ان المزاح وفاق
فالنار بالماء الذى هو ضدها * تعطى النضاج وطبعها الاحراق

﴿ فصل ﴾ وأما البر وهو الخامس من أسباب الالفة فلأنه يوصل الى القلوب ألطافا ويثنيها محبة وانعطافا ولذلك ندب الله تعالى الى التعاون به وقرنه بالتقوى له فقال « وتعاونوا على البر والتقوى » لأن فى التقوى رضا الله تعالى وفى البر رضا الناس ومن جمع بين رضا الله تعالى ورضا الناس فقد تمت سعادته وعمت نعمته . وروى الاعمش عن خيثمة عن ابن مسعود قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « جبلت القلوب على حب

من أحسن اليها و بغض من أساء اليها » وحكى أن الله تعالى أوحى الى داود على نبينا وعليه السلام ذكر عبادى إحسانى اليهم ليحبونى فانهم لا يحبون الا من أحسن اليهم . وأنشدنى أبو الحسن الهاشمى

الناس كلهم عيا * ل الله تحت ظلاله
فأحبهم طرّا اليـ * ـه أبرّهم لعياله

والبر نوعان صلة ومعروف . فأما الصلة فهى التبرع ببذل المال فى الجهات المحمودة لغير عوض مطلوب وهذا يبعث عليه سماحة النفس وسخاؤها و يمنع منه شحها و إباؤها قال الله تعالى « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » . وروى محمد بن ابراهيم التيمى عن عروة بن الزبير عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « السخى قريب من الله عز وجل قريب من الجنة قريب من الناس بعيد من النار والبخيل بعيد من الله عز وجل بعيد من الجنة بعيد من الناس قريب من النار » . وقال صلى الله عليه وسلم لعدى بن حاتم « رفع الله عن أبيك العذاب الشديد لسخائه » و بلغه صلى الله عليه وسلم عن الزبير إمساك فجذب عمامته اليه وقال يا زبير أنا رسول الله اليك والى غيرك يقول أنفق أنفق عليك ولا تولك فأولك عليك .

وروى أبو الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من يوم غربت فيه شمسه إلا وملكان ينادیان اللهم أعط منفقا خلفا وممسكا تالفا » وأنزل فى ذلك القرآن فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى . قال ابن عباس رضى الله عنهما يعنى من أعطى فيما أمر واتقى فيما حظر وصدق بالحسنى يعنى بالخلف من عطائه فعند هذا قال ابن عباس رضى الله عنهما لسادات

الناس فى الدنيا الاسخياء وفى الآخرة الأتقياء . وقيل فى منثور الحكم الجود عن موجود وقيل فى المثل سودد بلا جود كملك بلا جنود . وقال بعض الحكماء الجود حارس الأعراض . وقال بعض الادباء من جاد ساد ومن أضعف ازداد . وقال بعض الفصحاء جود الرجل يحببه إلى أضداده وبخله يبغضه إلى أولاده . وقال بعض الفصحاء خير الاموال ما استرق حرا وخير الاعمال ما استحق شكرا . وقال صالح بن عبد القدوس

ويظهر عيب المرء فى الناس بخله * ويستره عنهم جميعا سخاؤه
تغط بأثواب السخاء فانى * أرى كل عيب والسخاء غطاؤه

وحد السخاء بذل ما يحتاج اليه عند الحاجة وأن يوصل إلى مستحقه بقدر الطاقة وتدبير ذلك مستصعب ولعل بعض من يحب أن ينسب إلى الكرم ينكر حد السخاء ويجعل تقدير العطية فيه نوعا من البخل وان الجود بذل الموجود وهذا تكلف يفضى إلى الجهل بحدود الفضائل ولو كان الجود بذل الموجود لما كان للسرف موضع ولا للتبذير موقع وقد ورد الكتاب بذمهما وجاءت السنة بالنهى عنهما واذا كان السخاء محدودا فمن وقف على حده سمى كريما وكان للحمد مستحقا ومن قصر عنه كان بخيلا وكان للذم مستوجبا . وقد قال الله تعالى « ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة » . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « أقسم الله تعالى بعزته لا يجاوره بخيل » . وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « طعام الجواد دواء وطعام البخيل داء » وسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا يقول الشحيح أعذر من الظالم فقال لعن الله الشحيح ولعن الظالم .

وقال بعض الحكماء البخل جلباب المسكنة . وقال بعض الادباء البخيل ليس له خليل . وقال بعض البلغاء البخيل حارس نعمته وخازن ورثته وقال بعض الشعراء

اذا كنت جماعا لمالك ممسكا * فأنت عليه خازن وأمين
تؤدّيه مذموما إلى غير حامد * فيأكله عفوا وأنت دفين

وتظاهر بعض ذوى النباهة بحب الثناء مع إمساكه فيه فقال بعض الشعراء

أراك تؤمل حسن الثناء * ولم يرزق الله ذاك البخيلا
وكيف يسود أخو بطنة * يمنّ كثيرا ويعطى قليلا

وقد بينا حب الثناء وحب المال لان الثناء يبعث على البذل وحب المال يمنع منه فان ظهرا كان حب الثناء كاذبا . وقد قال بعض الشعراء

جمعت أمر بن ضاع الحزم بينهما * تيه الملوك وأخلاق المماليك
أردت شكرا بلا برّ ولا صلة * لقد سلكت طريقا غير مسلوك
ظننت عرضك لم يقرع بقارعة * وما أراك على حال بمتروك
لئن سبقت الى مال حظيت به * فما سبقت الى شئ سوى النوك

وقد يحدث عن البخل من الاخلاق المذمومة وان كان ذريعة الى كل مذمة أربعة أخلاق ناهيك بها ذما وهى الحرص والشره وسوء الظن ومنع الحقوق . فأما الحرص فهو شدة الكدح والاسراف فى الطلب . وأما الشره فهو استقلال الكفاية والاستكثار لغير حاجة وهذا فرق ما بين الحرص والشره . وقد روى العلاء بن جرير عن أبيه عن سالم بن مسروق قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من لا يجزيه من العيش ما يكفيه لم يجد ما عاش ما يغنيه » . وقال بعض الحكماء الشره من غرائز اللؤم .

وأما سوء الظن فهو عدم الثقة بمن هو لها أهل فان كان بالخالق كان شكا يؤول إلى ضلال وان كان بالمخلوق كان استخانة تصير بها مخانا وخوانا لان ظن الانسان بغيره بحسب ما يراه من نفسه فان وجد فيها خيرا ظنه فى غيره وان رأى فيها سوءا اعتقده فى الناس . وقد قيل فى المثل كل إناء ينضح بما فيه . فان قيل قد تقدم من قول الحكماء إنّ الحزم سوء الظنّ قيل تأويله قلة الاسترسال اليهم لا اعتقاد السوء فيهم

وأما منع الحقوق فان نفس البخيل لا تسمح بفراق محبوبها ولا تنقاد الى ترك مطلوبها فلا تذعن لحق ولا تجيب الى انصاف واذا آل البخيل الى ما وصفنا من هذه الاخلاق المذمومة والشيم اللئيمة لم يبق معه خير مرجوّ ولا اصلاح مأمول . وأما السرف والتبذير فان من زاد على حد السخاء فهو مسرف ومبذر وهو بالذم جدير . وقد قال الله تعالى « ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما عال من اقتصد » . وقد قال المأمون رحمه الله لا خير فى السرف ولا سرف فى الخير . وقال بعض الحكماء صديق الرجل قصده وسرفه عدوّه . وقال بعض البلغاء لا كثير مع اسراف ولا قليل مع احتراف * واعلم أن السرف والتبذير قد يفترق معناهما فالسرف هو الجهل بمقادير الحقوق والتبذير هو الجهل بمواقع الحقوق وكلاهما مذموم وذم التبذير أعظم لان المسرف يخطئ فى الزيادة والمبذر يخطئ فى الجهل ومن جهل مواقع الحقوق ومقاديرها بماله وأخطاها فهو كمن جهلها بفعاله فتعداها . وكما أنه بتبذيره قد يضع الشئ فى غير موضعه فهكذا قد يعدل به عن موضعه لأن المال أقل من أن يوضع فى كل موضع من حق وغير حق . وقد قال معاوية

رضى الله عنه كل سرف فبازائه حق مضيع . وقال بعض الحكماء الخطأ فى اعطاء مالا ينبغى ومنع ماينبغى واحد . وقال سفيان الثورى رضى الله عنه الحلال لا يحتمل السرف وليس يتم السخاء ببذل مافى يده حتى تسخو نفسه عما بيد غيره فلا يميل الى طلب ولا يكف عن بذل . وقد حكى أن الله تعالى أوحى إلى ابراهيم الخليل على نبينا وعليه السلام أتدرى لما اتخذتك خليلا قال لا يارب قال لأنى رأيتك تحب أن تعطى ولا تحب أن تأخذ . وروى سهل بن سعد الساعدى رضى الله عنه قال أتى رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله مرنى بعمل يحبنى الله عليه ويحبنى الناس فقال ازهد فى الدنيا يحبك الله وازهد فيما فى أيدى الناس يحبك الناس . وقال أيوب السختيانى لا ينبل الرجل حتى يكون فيه خصلتان العفة عن أموال الناس والتجاوز عنهم . وقيل لسفيان ما الزهد فى الدنيا قال الزهد فى الناس وكتب كسرى الى ابنه هرمز يابنى استقل الكثير مما تعطى واستكثر القليل مما تأخذ فان قرة عيون الكرام فى الاعطاء وسرور اللئام فى الاخذ ولا تعدن الشحيح أمينا ولا الكذاب حرا فانه لا عفة مع الشح ولا مروءة مع الكذب . وقال بعض الحكماء السخاء سخاء أن تكون بمالك متبرعا وعن مال غيرك متورعا . وقال بعض الصلحاء الجود غاية الزهد والزهد غاية الجود . وقال بعض الشعراء

اذا لم تكن نفس الشريف شريفة * وان كان ذا قدر فليس له شرف

والبذل على وجهين . أحدهما ما ابتدأ به الانسان من غير سؤال . والثانى ما كان عن طلب وسؤال فأما المبتدأ به فهو أطبعهما سخاء

وأشرفهما عطاء . وسئل على كرم الله وجهه عن السخاء فقال ما كان منه ابتداء فأما ما كان عن مسألة فحياء وتكرّم . وقال بعض الحكماء أجل النوال ما وصل قبل السؤال . وقال بعض الشعراء

وفتى خلا من ماله * ومن المروءة غير خال
أعطاك قبل سؤاله * فكفاك مكروه السؤال

وهذا النوع من البذل قد يكون لتسعة أسباب

فالسبب الأوّل — أن يرى خلة يقدر على سدها وفاقة يتمكن من ازالتها فلا يدعه الكرم والتدين إلا أن يكون زعيم صلاحها وكفيل نجاحها رغبة فى الأجر إن تدين وفى الشكر إن تكرم . وقال أبو العتاهية

ما الناس الا آلة معتمله * للخير والشر جميعا فعله

والسبب الثانى — أن يرى فى ماله فضلا عن حاجته وفى يده زيادة عن كفايته فيرى انتهاز الفرصة بها فيضعها حيث تكون له ذخرا معدا وغنما مستجدا . وقد قال الحسن البصرى رحمه الله ما أنصفك من كلفك اجلاله ومنعك ماله . وقيل لهند بنت الحسن من أعظم الناس فى عينك قالت من كان لى إليه حاجة . وقال الشاعر

وما ضاع مال ورث الحمد أهله * ولكنّ أموال البخيل تضيع

والسبب الثالث — أن يكون لتعريض يتنبه عليه لفطنته وإشارة يستدل عليها بكرمه فلا يدعه الكرم أن يغفل ولا الحياء أن يكف . وقد حكى أن رجلا سار بعض الولاة فقال ما أهزل برذونك فقال يده مع أيدينا فوصله اكتفاء بهذا التعريض الذى بلغ ما لا يبلغه صريح السؤال ولذلك قال أكثم بن صيفى السخاء حسن الفطنة واللؤم سوء التغافل .

وحكى أن عبيد الله بن سليمان لما تقلد وزارة المعتضد كتب اليه عبيد الله بن عبد الله بن طاهر

أبى دهرنا اسعافنا فى نفوسنا * وأسعفنا فيمن نحب ونكرم
فقلت له نعمالُ فيهم أتيها * ودع أمرنا ان المهم مقدم

فقال عبيد الله ما أحسن ما شكا أمره بين أضعاف مدحه ثم قضى حاجته وقال بعض الشعراء

ومن لا يرى من نفسه مذكرا لها * رأى طلب المستنجدين ثقيلا

والسبب الرابع — أن يكون ذلك رعاية ليد أو جزاء على صنيعة فيرى تأدية الحق عليه طوعا إما أنفة و إما شكرا ليكون من أسر الامتنان طليقا ومن رق الاحسان وعبوديته عتيقا . قال بعض الحكماء الاحسان رق والمكافأة عتق . وقال أبو العتاهية رحمه الله تعالى

وليست أيادى الناس عندى غنيمة * ورب يد عندى أشد من الأسر

والسبب الخامس — أن يؤثر الاذعان بتقديمه والاقرار بتعظيمه توطيد الرئاسة هو لها محب وعلى طلبها مكب . وقد قال الشاعر

حب الرياسة داء لا دواء له * وقلما تجد الراضين بالقسم

فتستصعب عليه اجابة النفوس له طوعا الا بالاستعطاف و إذعانها الا بالرغبة والاسعاف . وقد قال بعض الادباء بالاحسان يرتبط الانسان . وقال بعض البلغاء من بذل ماله أدرك آماله . وقال بعض الشعراء

أترجو أن تسود بلا عناء * وكيف يسود ذو الدعة البخيل

والسبب السادس — أن يدفع به سطوة أعدائه و يستكف به نفار خصمائه ليصير والله بعد الخصومة أعوانا و بعد العداوة اخوانا إما لصيانه عرض و إما لحراسة مجد . وقد قال أبو تمام الطائى

ولم يجتمع شرق وغرب لقاصد * ولا المجد فى كف امرئ والدراهم

ولم أر كالمعروف تدعى حقوقه * مغارم فى الاقوام وهى مغانم

وقال بعض الادباء من عظمت مرافقه أعظمه مرافقه

والسبب السابع — أن يرب به سالف صنيعة أولاها ويراعى به قديم نعمة أسداها كيلا ينسى ما أولاه أو يضاع ما أسداه فان مقطوع البر ضائع ومهمل الاحسان ضال . وقد قال الشاعر

وسمت امرأ بالبر ثم اطرحته * ومن أفضل الاشياء رب الصنائع

وقال محمد بن داود الاصبهانى

بدأت بنعمى أوجبت لى حرمة * عليك فعد بالفضل فالعود أحمد

والسبب الثامن — المحبة يؤثر بها المحبوب على ماله فلا يضن عليه بمرغوب ولا ينفس عليه بمطلوب للذة التى هى عنده أحظى والى نفسه أشهى لان النفس الى محبوبها أشوق والى مما يلته أسبق . وقد قال الشاعر

فما زرتكم عمدا ولكن ذا الهوى * الى حيث يهوى القلب تهوى به الرجل

وهذا وان دخل فى أقسام العطاء فخارج عن حد السخاء وهكذا الخامس والسادس من هذه الاسباب وانما ذكرناها لدخولها تحت أقسام العطاء والسبب التاسع ليس بسبب أن يفعل ذلك لغير سبب وانما هى منه سجية قد فطر عليها وشيمة قد طبع بها فلا يميز بين مستحق ومحروم ولا يفرق بين محمود ومذموم كما قال الشاعر

ليس يعطيك للرجاء ولا الـ * ـخوف لكن يلذ طعم العطاء

وقد اختلف الناس فى مثل هذا هل يكون منسوبا الى السخاء فيحمد أو خارجا عنه فيذم وقال قوم هذا هو السخى طبعا والجواد كرما وهو أحق من كان به ممدوحا واليه منسوبا . وقال أبو تمام

من غير ماسبب يدنى كفى سببا * للحرّ أن يحتدى حرّا بلاسبب

وقال الحسن بن سهل اذا لم أعط الا مستحقا فكأنى أعطيت غريما وقال الشرف فى السرف فقيل له لا خير فى السرف فقال ولا سرف فى الخير .

وقال الفضل بن سهل العجب لمن يرجو من فوقه كيف يحرم من دونه .

وقال بشار

وما الناس الا صاحبان فمنهم * سخىّ ومغلول اليدين من البخل

فسامح يداما أمكنتك فانها * تقل وتثرى والعواذل فى شغل

وقال آخرون هذا خارج من السخاء المحمود الى السرف والتبذير المذموم لأن العطاء اذا كان لغير سبب كان المنع لغير سبب لأن المال يقل عن الحقوق و يقصر عن الواجبات فاذا أعطى غير المستحق فقد منع مستحقا وما يناله من الذم بمنع المستحق أكثر مما يناله من الحمد لاعطاء غير المستحق وحسبك ذما بمن كانت أفعاله تصدر عن غير تمييز وتوجد لغير علة وقد قال الله تعالى « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » فنهى عن بسطها سرفا كما نهى عن قبضها بخلا فدل على استواء الأمرين ذما وعلى اتفاقهما لوما . وقال الشاعر

وكان المال يأتينا فكنا * نبذره وليس لنا عقول

فلما أن تولى المال عنا * عقلنا حين ليس لنا فضول

قالوا ولأن العطاء والمنع اذا كانا لغير علة أفضيا الى ذم الممنوع وقلة شكر المعطى أما الممنوع فلأنه قد فضل عليه من سواه وأما المعطى فانه وجد ذلك اتفاقا وربما أمل بالاتفاق أضعافا فصار ذلك مفضيا الى اجتلاب الذم واحباط الشكر وليس فيما أفضى الى واحد منهما ما خير يرجى وهو

جدير أن يكون شرا يبقى ولمثل هذا كان منع الجميع ارضاء للجميع وعطاء يكون المنع أرضى منه خسران مبين . فأما اذا كان البذل والعطاء عن سؤال وطلب فشروطه معتبرة من وجهين أحدهما في السائل والثاني في المسؤل . فأما ما كان معتبرا في السائل فثلاثة شروط الشرط الأول أن يكون السؤال لسبب والطلب لموجب فان كان لضرورة ارتفع عنه الحرج وسقط عنه اللوم . وقد قال بعض الحكماء الضرورة توقع الصورة . وقال بعض الشعراء

ألا قبح الله الضرورة إنها * تكلف أعلى الخلق أدنى الخلائق

ولله در الاتساع فانه * يبين فضل السبق من غير سابق

وقال الكميت

اذا لم يكن الا الأسنة مركب * فلا رأي للمضطر الا ركوبها

فان ارتفعت الضرورة ودعت الحاجة فيما هو أولى الأمرين أن يكون وان جاز أن لا يكون فالنفس المسامحة تغلب الحاجة وتسمح في الطلب وتراعي ما استقام به الحال وان ناله ذل ولحقه وهن فيتأول صاحبها قول البحتري

وربما كان مكروه الأمور إلى * محبوبها سببا ما مثله سبب

والنفس الشريفة تطلب الصيانة وتراعي النزاهة وتحتمل من الضر ما احتملت ومن الشدة ما أطاقت فيبقى تحملها ويدوم تصونها فتكون كما قال الشاعر

وقد يكتسي المرء خز الثياب * ومن دونها حالة مضنيه

كما يكتسي خده حمرة * وعلته ورم في انزيه

فلا يرى أن يتدنس بمطالب الشؤم ومطالع اللؤم فان البهائم الوحشية تأبى ذلك وتأنف منه قال الشاعر

وليس الليث من جوع بغاد * على جيف تطيف بها الكلاب

فكيف بالانسان الفاضل الذى هو أكرم الحيوان جنسا وأشرفه نفسا هل يحسن به أن يرى لوحوش البهائم عليه فضلا . وقد قال الشاعر

على كل حال يأكل المرء زاده * على البؤس والضراء والحدثان

وقد قيل لبعض الزهاد لو سألت جارك أعطاك فقال والله ما أسأل الدنيا ممن يملكها فكيف ممن لا يملكها . ووصف بعض الشعراء قوما فقال

اذا افتقروا أغضوا على الضر حسبة * وان أيسروا عادوا سراعا الى الفقر

فأما من يسأل من غير ضرورة مست ولا حاجة دعت فذلك صريح اللؤم ومحض الدناءة وقلما تجد مثله ملحوظا أو ممتولا محفوظا لأن الحرمان قاده الى أضيق الارزاق واللؤم ساقه الى أخبث المطاعم فلم يبق لوجهه ماء إلا أراقه ولا ذل الا ذاقه كما قال عبد الصمد بن المعذل لأبى تمام الطائى

أنت بين اثنتين تبرز للنا * س وكلتاهما بوجه مذال

لست تنفك طالبا لوصال * من حبيب أو طالبا لنوال

أى ماء لحر وجهك يبقى * بين ذل الهوى وذل السؤال

ولو استقبح العار وأنف من الذل لوجد غير السؤال مكسبا يمونه ولقدر على ما يصونه وقد قال الشاعر

لا تطلبن معيشة بتذلل * فليأتينك رزقك المقدور

واعلم بانك آخذ كل الذى * لك فى الكتاب مقدر مسطور

والشرط الثانى من شروط السؤال أن يضيق الزمان عن إرجائه و يقصر

الوقت عن ابطائه فلا يجد لنفسه في التأخير فسحة ولا في التمادي مهملة فيصير من المعذورين وداخلا في عداد المضطرين فأما اذا كان الوقت متسعا والزمان ممتدا فتعجيل السؤال لؤم وتثبط . وقال الشاعر

أبى لي إغضاء الجفون على القذى * يقيني أن لا عسر الا مفرج
ألا ربما ضاق الفضاء بأهله * وأمكن من بين الاسنة مخرج

والشرط الثالث اختيار المسؤل أن يكون مرجو الاجابة مأمول النجح إما لحرمة السائل أو كرم المسئول فان سأل لئيما لا يرعى حرمه ولا يولى مكرمه فهو في اختياره ملوم وفي سؤاله محروم . وقد قال بعض البلغاء المخذول من كانت له الى اللئام حاجة . وقد قال بعض البلغاء أذل من اللئيم سائله وأقل من البخيل نائله . وقال بعض الشعراء

من كان يأمل أن يرى * من ساقط نيلا سنيا
فلقد رجا أن يجتنى * من عوسج رطبا جنيا

وأما الشروط المعتبرة في المسئول فثلاثة

الشرط الاول — أن يكتفي بالتعريض ولا يلجئ الى السؤال الصريح ليصون السائل عن ذل الطلب فان الحال ناطقة والتعريض كاف . وقد قال الشاعر

أقول وستر الدجى مسبل * كما قال حين شكا الضفدع
كلانى ان قلته ضائع * وفي الصمت حتفي فما أصنع

وربما فهم المسؤل الاشارة فألجأ الى التصريح بالعبارة تهجينا للسائل ليخجل فيسأل ويستحي فيكف فيكون كما قال أبو تمام

من كان مفقود الحياء فوجهه * من غير ثوب له بواب

والشرط الثانى – أن يلقى بالبشر والترحيب و يقابل بالطلاقة والتقريب ليكون مشكورا ان أعطى ومعذورا ان منع . وقد قال بعض الحكماء الق صاحب الحاجة بالبشر فان عدمت شكره لم تعدم عذره . وقال ابن ينكك ان أبا بكر بن دريد قصد بعض الوزراء فى حاجة فلم يقضها له وظهر له منه ضجر فقال

لا تدخلنك ضجرة من سائل * فلغير دهرك أن ترى مسئولا
لا تجبهن بالرد وجه مؤمل * فبقاء عزك أن ترى مأمولا
تلق الكريم فتستدل ببشره * وترى العبوس على اللئيم دليلا
واعلم بأنك عن قليل صائر * خبرا فكن خبرا يروق جميلا

والشرط الثالث – تصديق الامل فيه وتحقيق الظن به ثم اعتبار حاله وحال سائله فانهما لا يخلوان من أربع أحوال ( فالحال الاولى ) أن يكون السائل مستوجبا والمسئول متمكنا فالاجابة ههنا تستحق كرما وتستلزم مروءة وليس للرد سبيل إلا لمن استولى عليه البخل وهان عليه الذم فيكون كما قال فيه عبد الرحمن بن حسان

انى رأيت من المكارم حسبكم * أن تلبسوا خز الثياب وتشبعوا
فاذا تذوكرت المكارم مرة * فى مجلس أنتم به فتقنعوا

فنعوذ بالله ممن حرم ثروة ماله ومنع حسن حاله أن يكون مستودعا فى صنع مشكور وبر مذخور وقد قيل لبخيل لم حبست مالك قال للنوائب فقيل له قد نزلت بك . وقال بعض الشعراء

مالك من مالك الا الذى * قدمت فابذل طائعا مالكا
تقول أعمالى ولو فتشوا * رأيت أعمالك أعمى لكا

وقد أسقط حق نفسه ورفع أسباب شكره فصار بأن لا حق له مذموما كمشكور ومأثوما كمأجور . وقال أبو العتاهية

خزن البخيل على صالحه * اذ لم يثقل برّه ظهري
ما فاتني خير امرئ وضعت * عني يداه مؤنة الشكر

فاذا لم يكن للرد في مثل هذه الحال سبيل نظر فان كان التأخير مضرا عجل بذله وقطع مطله وكانت اجابته فعلا وقوله عملا . وقد قالت الحكماء من مروءة المطلوب منه أن لا يلجئ إلى إلحاح عليه . وقال محمد بن حازم

ومنتظر سؤالك بالعطايا * وأشرف من عطاياه السؤال
اذا لم يأتك المعروف طوعا * فدعه فالتنزه عنه مال

وان كان في الوقت مهلة وفي التأخير فسحة فقد اختلفت مذاهب الفضلاء فيه فذهب بعضهم الى أن الاولى تعجيل الوعد قولا ثم يعقبه الانجاز فعلا ليكون السائل مسرورا بتعجيل الوعد ثم بآجل الانجاز ويكون المسئول موصوفا بالكرم ملحوظا بالوفاء . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «العدة عطية» . وقال الفضل بن سهل لرجل سأله حاجة أعدك اليوم وأحبوك غدا بالانجاز لتذوق حلاوة الامل وأتزين بثوب الوفاء . ووعد يحيى بن خالد رجلا بحاجة سأله اياها فقيل له تعد وأنت قادر فقال إن الحاجة إذا لم يتقدمها وعد ينتظر صاحبه نجحه لم يجد سرورها لأن الوعد طمع والانجاز طعام وليس من فاجأه الطعام كمن يجد ريحه ويطعمه فدع الحاجة تختمر بالوعد ليكون لها طعم عند المصطنع اليه . وقال بعض البلغاء اذا أحسنت القول فأحسن الفعل ليجتمع لك ثمرة اللسان وثمرة الاحسان ولا تقل ما لا تفعل فانك لا تخلو في ذلك من ذنب

تكتسبه أوعجز تلتزمه ومنهم من ذهب إلى أن تعجيل البذل فعلا من غير وعد أولى وتقديمه من غير ترقب ولا انتظار أحرى وانما يقدم الوعد أحد رجلين إما معوز ينتظر جدة وإما شحيح يروض نفسه توطئة وليس للوعد فى غير هاتين الحالتين وجه يصح ولا رأى يتضح مع ما يغيره الليل والنهار وتتقلب به الحال من يسار و إعسار . وقال بعض الشعراء

يا أيها الملك المقدم أمره شرقا وغربا
امنن بختم صحيفتى * مادام هذا الطين رطبا
واعلم بأن جفافه * مما يعيد السهل صعبا

قالوا ولأن فى الرجوع عنه من الانكسار وفى توقع الوعد من مرارة الانتظار وفى العود اليه من بذلة الاقتضاء وذلة الاجتداء ما يكدر بره ويوهن شكره . وقال الشاعر

ان الحوائج ربما أزرى بها * عند الذى تقضى له تطويلها
واذا ضمنت لصاحب لك حاجة * فاعلم بأن تمامها تعجيلها

(والحال الثانية) أن يكون السائل غير مستوجب والمسئول غير متمكن ففى الرد فسحة وفى المنع عذر غير أنه يلين عند الرد لينا يقيه الذم ويظهر عذرا يدفع عنه اللوم فليس كل مقل يعرف ولا معذور ينصف . وقد قال أبو العتاهية يصف الناس

يارب ان الناس لا ينصفوننى * فكيف وإن أنصفتهم ظلمونى
فان كان لى شئ تصدوا لأخذه * وان جئت أبغى شيئهم منعونى
وإن نالهم بذلى فلا شكر عندهم * وان أنا لم أبذل لهم شتمونى

وان طرقتني نكبة فكهوا بها * وان صحبتني نعمة حسدوني
سأمنع قلبي أن يحن اليهم * وأغمض عنهم ناظري وجفوني
وأقطع أيامي بيوم سهولة * أقضي بها عمري ويوم حزون
ألا إن أصفى العيش ما طاب غبه * وما نلته في لذة وسكون

(والحال الثالثة) أن يكون السائل مستوجبا والمسئول غير متمكن فيأتي بالحمل على النفس ما أمكن من يسير يسدبه خلة أو يدفع به مذمة أو يوضح من أعذار المعوزين وتوجع المتألمين ما يجعله في المنع معذورا وبالتوجع مشكورا . وقد قال أبو النصر العتبي رحمه الله تعالى

الله يعلم أني لست ذا بخل * ولست ملتمسا في البخل لي علة
لكن طاقة مثلي غير خافية * والمثل يعذر في القدر الذي جلا

وربما تحسر بحدوث العجز بعد تقدم القدرة على فوت الصنيعة وزوال العادة حتى صار أضنى جسدا وأزيد كمدا كما قال الشاعر

وكنت كباز السوء قص جناحه * يرى حسرات كلما لمح طائر
يرى طائرات الجو تخفق حوله * فيذكر إذ ريش الجناحين وافر

(والحال الرابعة) أن يكون السائل غير مستوجب والمسئول متمكنا وعلى البذل قادرا فينظر فان خاف بالرد قدح عرض أو قبح هجاء مض كان البذل اليه مندوبا صيانة لا جودا فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما وقى به المرء عرضه فهو له صدقة » وان أمن من ذلك وسلم منه فمن الناس من غلب المسألة وأمر بالبذل لئلا يقابل الرجاء بالخيبة والأمل باليأس ولما فيه من اعتياد الرد واستسهال المنع المفضي الى الشح وأنشد الأصمعي عن الكسائي

كأنك فى الكتاب وجدت لاء * محرّمة عليك فلا تحلّ
فما تدرى اذا أعطيت مالا * أيكثر من سماحك أم يقلّ
اذا حضر الشتاء فأنت شمس * وان حضر المصيف فأنت ظلّ

ومن الناس من اعتبر الاسباب وغلب حال السائل وندب الى المنع اذا كان العطاء فى غير حق ليقوى على الحقوق اذا عرضت ولا يعجز عنها اذا لزمت وتعينت . وقد قال بعض الشعراء

لا تجد بالعطاء فى غير حق * ليس فى منع غير ذى الحق بخل
انما الجود أن تجود على من * هو للجود والندى منك أهل

فأما من أجاب السؤال ووعد بالبذل والنوال فقد صار بوعده مرهونا وصار وفاؤه بالوعد مقرونا فلا اعتبار بحق السائل بعد الوعد ولا سبيل الى مراجعة نفسه فى الرد فيستوجب مع ذم المنع لؤم البخل ومقت القادر وهجنة الكذوب ثم لا سبيل لمطله بعد الوعد لما فى المطل من تكدير الصنيع وتعتيق الشكر والعرب تقول فى أمثالها المطل أحد المنعين واليأس أحد النجحين . وقال بشار بن برد

أظلت علينا منك يوما غمامة * أضاءت لنا برقا وأبطر شاشها
فلا غيمها يجلى فيأس طامع * ولا غيثها يأتى فيروى عطاشها

ثم اذا أنجز وعده وأوفى عهده لم يتبع نفسه ما أعطى ويسر أن كانت يده العليا فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اليد العليا خير من اليد السفلى » . وقال الشاعر

فانك لا تدرى اذا جاء سائل * أأنت بما تعطيه أم هو أسعد
عسى سائل ذو حاجة ان منعته * من اليوم سؤلا أن يكون له غد

وليكن من سروره اذا كانت الارزاق مقدرة أن تكون على يده جارية ومن جهته واصلة لا تنقطع عنه بمنع ولا تتحول عنه بياس . وحكى أن رجلا شكا كثرة عياله الى بعض الزهاد فقال انظر من كان منهم ليس رزقه على الله عز وجل فحوله الى منزلى . وقال ابن سيرين لرجل كان يأتيه على دابة ففقد الدابة ما فعل برذونك قال اشتدت على مؤنته فبعته قال أفتراه خلف رزقه عندك . وقال ابن الرومى رحمه الله .

إن لله غير مرعاك مرعى * ترتعيه وغير مائك ماء
إن لله بالبرية لطفا * سبق الأمهات والآباء

ثم ليكن غالب عطائه لله تعالى وأكثر قصده ابتغاء ما عند الله عز وجل كالذى حكاه أبو بكرة عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن أعرابيا أتاه فقال

يا عمر الخير جزيت الجنه * أكس بنياتى وأمهنه
وكن لنا من الزمان جنه * أقسم بالله لتفعلنه

فقال عمر رضى الله عنه فان لم أفعل يكون ماذا فقال

* إذن أباحفص لأذهبنه *

فقال فاذا ذهبت يكون ماذا فقال

يكون عن حالى لتسألنه * يوم تكون الأعطيات هنه
وموقف المسؤل بينهنه * إما الى نار وإما جنه

فبكى عمر رضى الله عنه حتى اخضلت لحيته ثم قال يا غلام أعطه قميصى هذا لذلك اليوم لا لشعره أما والله لا أملك غيره . واذا كان العطاء على هذا الوجه خلا من طلب جزاء وشكر وعرى عن امتنان ونشر فكان ذلك أشرف للباذل وأهنأ للقابل . وأما المعطى اذا التمس بعطائه الجزاء وطلب به الشكر

والثناء فهو خارج بعطائه عن حكم السخاء لانه ان طلب به الشكر والثناء كان صاحب سمعة ورياء وفى هذين من الذم والسمعة ما ينافى السخاء وان طلب به الجزاء كان تاجرا متربحا لا يستحق حمدا ولا مدحا . وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما فى تأويل قوله تعالى «ولا تمنن تستكثر» إنه الذى يعطى عطية يلتمس بها أفضل منها . وكان الحسن البصرى رضى الله عنه يقول فى تأويل ذلك لا تمنن بعملك تستكثر على ربك . وقال أبو العتاهية

وليست يد أوليتها بغنيمة * اذا كنت ترجو أن تعد لها شكرا

غنى المرء ما يكفيه من سد حاجة * فان زاد شيأ عاد ذلك الغنى فقرا

واعلم أن الكريم يجتدى بالكرامة واللطف واللئيم يجتدى بالمهانة والعنف فلا يجود الا خوفا ولا يهب الا عنفا كما قد قال الشاعر

رأيتك مثل الجوز يمنع لبه * صحيحا ويعطى خيره حين يكسر

فاحذر أن تكون المهانة طريقا الى اجتدائك والخوف سبيلا الى اعطائك فيجرى عليك سفه الطغام وامتهان اللئام وليكن جودك كرما ورغبة لا لؤما ورهبة كيلا يكون مع الوصمة كما قال العباس بن الاحنف

صرت كأنى ذبالة نصبت * تضىء للناس وهى تحترق

وأما النوع الثانى من البر فهو المعروف ويتنوع أيضا نوعين قولا وعملا فأما القول فهو طيب الكلام وحسن البشر والتودد بجميل القول وهذا يبعث عليه حسن الخلق ورقة الطبع ويجب أن يكون محدودا كالسخاء فانه ان أسرف فيه كان ملقا مذموما وان توسط واقتصد فيه كان معروفا وبرا محمودا وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما فى تأويل قوله تعالى «والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا» انها الكلام الطيب . وكان سعيد بن جبير

يتأول أنها الصلوات الخمس . وروى سعيد عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «انكم لن تسعوا الناس بأموالكم فليسعهم منكم بسط الوجوه وحسن الخلق» . وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم أنشد عنده قول الاعرابي هذا

وحق ذوي الأضغان تسب قلوبهم * تحيتك الحسنى فقد ترقع النعل
فان دحسوا بالمكر فاعف تكرما * وان حبسوا عنك الحديث فلا تسل
فان الذي يؤذيك منه سماعه * وان الذي قالوا وراءك لم يقل

فقال النبي صلى الله عليه وسلم «ان من الشعر لحكمة وان من البيان لسحرا» وقيل للعتابي انك تلقى العامة ببشر وتقريب قال دفع صنيعة بأيسر مؤنة واكتساب اخوان بأيسر مبذول وقيل في منثور الحكم من قل حياؤه قل أحياؤه . وقال بعض الشعراء

بني ان البشر شيء هين * وجه طليق وكلام لين

وقال بعضهم

المرء لا يعرف مقداره * ما لم تبن للناس أفعاله
وكل من يغنى بشره * فقلما ينفعنى ماله

وأما العمل فهو بذل الجاه والمساعدة بالنفس والمعونة في النائبة وهذا يبعث عليه حب الخير للناس وإيثار الصلاح لهم وليس في هذه الأمور سرف ولا لغايتها حد بخلاف النوع الاول لانها وان كثرت فهي أفعال خير تعود بنفعين نفع على فاعلها في اكتساب الاجر وجميل الذكر ونفع على المعان بها في التخفيف عنه والمساعدة له . وقد روى محمد بن المنكدر عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «كل معروف صدقة» . وقال النبي صلى الله

عليه وسلم «صنائع المعروف تقى مصارع السوء» وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال المعروف كاسمه وأول من يدخل الجنة يوم القيامة المعروف وأهله . وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه لا يزهدنك فى المعروف كفر من كفره فقد يشكر الشاكر بأضعاف جحود الكافر . وقال الحطيئة

(١) من يفعل الخير لا يعدم جوازيه * لا يذهب العرف بين الله والناس

وأنشد الرياشى

يد المعروف غنم حيث كانت * تحملها كفور أم شكور

ففى شكر الشكور لها جزاء * وعند الله ما كفر الكفور

فينبغى لمن يقدر على ابتداء المعروف أن يعجله حذر فواته ويبادر به خيفة عجزه وليعلم أنه من فرص زمانه وغنائم امكانه ولا يهمله ثقة بقدرته عليه فكم واثق بقدرة فاتت فأعقبت ندما ومعول على مكنة زالت فأورثت خجلا . وقد قال الشاعر

مازلت أسمع كم من واثق خجل * حتى ابتليت فكنت الواثق الخجلا

ولو فطن لنوائب دهره وتحفظ من عواقب مكره لكانت مغانمه مذخوره ومغارمه محجوره فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «من فتح عليه باب من الخير فلينتهزه فانه لا يدرى متى يغلق عليه» وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال «لكل شئ ثمرة وثمرة المعروف تعجيل السراح» . وقيل لأنوشروان ما أعظم المصائب عندكم فقال أن تقدر على المعروف ولا تصطنعه حتى يفوت وقال عبد الحميد من أخر الفرصة عن وقتها فليكن على ثقة من فوتها . وقال بعض الشعراء

---

(١) قوله جوازيه هو الصواب وفى الاصل المطبوع جوائزه وهو تحريف كتبه مصححه

اذا هبت ريا حسك فاغتنمها * فان لكل خافقة سكون
ولا تغفل عن الاحسان فيها * فما تدرى السكون متى يكون
وان درّت نياقك فاحتلبها * فما تدرى الفصيل لمن يكون

وروى أن بعض وزراء بنى العباس مطل راغبا اليه فى عمل يستكفيه اياه فكتب اليه بعد طول المطل به

أما يدعوك طول الصبر منى * على استئناف منفعتى وشغلى
وعلمك أن ذا السلطان غاد * على خطرين من موت وعزل
وانك ان تركت قضاء حقى * الى وقت التفرغ والتخلى
ستعقبنى نادما أسفا معزى * على فوت الصنيعة عند مثلى

وكتب بعض ذوى الحرمات الى وال قد قصر فى رعاية حرمته يقول

أعلى الصراط تريد رعية حرمتى * أم فى الحساب تمن بالانعام
للنفع فى الدنيا أردتك فانتبه * لحوائجى من رقدة النوّام

وكتب أبو على البصير الى بعض الوزراء وقد اعتذر اليه بكثرة الاشغال يقول

لنا كل يوم نوبة قد تنوبها * وليس لنا رزق ولا عندنا فضل
فان تعتذر بالشغل عنا فانما * تناط بك الآمال ما اتصل الشغل

واعلم أن للمعروف شروطا لا يتم الا بها ولا يكمل الا معها فمن ذلك ستره عن اذاعة يستطيل لها واخفاؤه عن اشاعة يستدل بها . قال بعض الحكماء اذا اصطنعت المعروف فاستره واذا صنع اليك فانشره ولقد قال دعبل الخزاعى

اذا انتقموا أعلنوا أمرهم * وان أنعموا أنعموا باكتتام

يقوم القعود اذا أقبلوا * وتقعد هيبتهم بالقيام

على أن ستر المعروف من أقوى أسباب ظهوره وأبلغ دواعي نشره لما جبلت عليه النفوس من اظهار ما خفي واعلان ما كتم . وقال سهل بن هارون

خل اذا جئته يوما لتسأله * أعطاك ما ملكت كفاه واعتذرا

يخفي صنائعه والله يظهرها * ان الجميل اذا أخفيته ظهرا

ومن شروط المعروف تصغيره عن أن يراه مستكبرا وتقليله عن أن يكون مستكثرا لئلا يصيره مدلا بطرا ومستطيلا أشرا . وقال العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه لا يتم المعروف الا بثلاث خصال تعجيله وتصغيره وستره فاذا عجلته هنأته واذا صغرته عظمته واذا سترته أتممته . وقال بعض الشعراء

زاد معروفك عندي عظما * أنه عندك مستور حقير

وتناسيت كأن لم تأته * وهو عند الناس مشهور خطير

ومن شروط المعروف مجانبة الامتنان به وترك الاعجاب بفعله لما فيهما من اسقاط الشكر واحباط الاجر . فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «اياكم والامتنان بالمعروف فانه يبطل الشكر ويمحق الاجر» ثم تلا «لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى» . وسمع ابن سيرين رجلا يقول لرجل فعلت اليك وفعلت فقال ابن سيرين اسكت فلا خير في المعروف اذا أحصي . وقال بعض الحكماء المن مفسدة الصنيعة . وقال بعض الأدباء كدر معروفا امتنان وضيع حسبا امتهان . وقد قال بعض البلغاء من من بمعروفه سقط شكره ومن أعجب بعمله حبط أجره . وقال بعض الفصحاء

قوة المنن من ضعف المنن . وقال بعض الشعراء

أفسدت بالمن ما أسديت من حسن * ليس الكريم اذا أسدى بمنان

وقال أبو نواس

فامض لا تمنن على يدا * منك المعروف من كدره

وأنشدت عن الربيع للشافعي رضي الله عنه

لا تحملن لمن يمن من الانام عليك منه

واختر لنفسك حظها * واصبر فان الصبر جنه

منن الرجال على القلو * ب أشد من وقع الأسنه

ومن شروط المعروف أن لا يحتقر منه شيئا وان كان قليلا نزرا اذا كان الكثير معوزا وكنت عنه عاجزا فان من حقر يسيره فمنع منه أعجزه كثيره فامتنع عنه وفعل قليل الخير أفضل من تركه . فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «لا يمنعكم من المعروف صغيره» . وقال عبد الله بن جعفر لا تستحي من القليل فان البخل أقل منه ولا تحين عن الكثير فانك أكثر منه . وقد قال الشاعر

اعمل الخير ما استطعت وان كا * ن قليلا فلن تحيط بكله

ومتى تفعل الكثير من الخي * ر اذا كنت تاركا الأقله

على أن من المعروف ما لا كلفة على موليه ولا مشقة على مسديه وانما هو جاه يستظل به الأدنى ويرتفق به التابع . وقد قال الشاعر

ظل الفتى ينفع من دونه * وماله في ظله حظ

واعلم أنك ان تستطيع أن توسع جميع الناس معروفك ولا أن توليهم احسانك فاعتمد بذلك أهل الفضل منهم والحفاظ واقصد به ذوي الرعاية والوداد

ليكون معروفك فيهم ناميا وصنيعك عندهم زاكيا . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لا تنفع الصنيعة الا عند ذى حسب ودين . وقال النبى صلى الله عليه وسلم اذا أراد الله بعبد خيرا جعل صنائعه فى أهل الحفاظ . وقال حسان بن ثابت رضى الله عنه

ان الصنيعة لا تكون صنيعة * حتى يصاب بها طريق المصنع
فاذا صنعت صنيعة فاعمل بها * لله أو لذوى القرابة أودع

وقيل فى منثور الحكم لا خير فى معروف الى غير معروف وقد ضرب الشاعر به مثلا فقال

كحمار السوء ان أشبعته * رمح الناس وان جاع نهق

وقد قال بعض الحكماء على قدر المغارس يكون اجتناء الغارس فأخذه بعض الشعراء فقال

لعمرك ما المعروف فى غير أهله * ووفى أهله الا كبعض الودائع
فمستودع ضاع الذى كان عنده * ومستودع ما عنده غير ضائع
وما الناس فى شكر الصنيعة عندهم * وفى كفرها الا كبعض المزارع
فمزرعة طابت وأضعف نبتها * ومزرعة أكدت على كل زارع

وأعلم أن أندى اليه المعروف واصطنع اليه الاحسان فقد صار بأمر المعروف موثوقا وفى ملك الاحسان مرقوقا ولزمه ان كان من أهل المكافأة أن يكافئ عليه وان لم يكن من أهلها أن يقابل المعروف بنشره ويقابل الفاعل بشكره . فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «من أودع معروفا فليشره فان نشره فقد شكره وان كتمه فقد كفره» . وروى الزهرى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أتمثل بهذين البيتين

ارفع ضعيفك لا يحربك ضعفه * يوما فتدركه العواقب قد نما
يجزيك أو يثني عليك وان من * أثنى عليك بما فعلت فقد جزى

فقال النبي صلى الله عليه وسلم ردى على قول اليهودى قاتله الله لقد أتانى جبرائيل برسالة من ربى تعالى «أيما رجل صنع الى أخيه صنيعة فلم يجد لها جزاء الا الدعاء والثناء فقد كافأه» . وقيل فى منثور الحكم الشكر قيد النعم . وقال عبد الحميد من لم يشكر الانعام فاعدده من الانعام وقيل فى منثور الحكم قيمة كل نعمة شكرها . وقال بعض الحكماء كفر النعم من أمارات البطر وأسباب الغير . وقال بعض الفصحاء الكريم شكور أو مشكور واللئيم كفور أو مكفور وقال بعض البلغاء لا زوال للنعمة مع الشكر ولا بقاء لها مع الكفر . وقال بعض الادباء

شكر الاله بطول الثناء * وشكر الولاة بصدق الولاء
وشكر النظير بحسن الجزاء * وشكر الدنى بحسن العطاء

وقال بعض الشعراء

فلو كان يستغنى عن الشكر ماجد * لعزة ملك أو علو مكان
لما أمر الله العباد بشكره * فقال اشكروا لى أيها الثقلان

فان من شكر معروف من أحسن اليه ونشر افضال من أنعم عليه فقد أدى حق النعمة وقضى موجب الصنيعة ولم يبق عليه الا استدامة ذلك انما لشكره ليكون للمزيد مستحقا ولمتابعة الاحسان مستوجبا . حكى أن الحجاج أتى اليه بقوم من الخوارج وكان فيهم صديق له فأمر بقتلهم الا ذلك الصديق فانه عفا عنه وأطلقه ووصله فرجع الرجل الى قطرى بن الفجاءة وكان من أصحابه فقال له عد الى قتال الحجاج عدو الله فقال هيهات غل يدا مطلقها واسترق رقبة معتقها وأنشأ يقول

أأقاتل الحجاج عن سلطانه * بيد تقرّ بانها مولاته
انى اذا الأخو الدناءة والذى * شهدت بأقبح فعله غدراته
ماذا أقول اذا وقفت إزاءه * فى الصف واحتجت له فعلاته
أ أقول جار على لا إنى اذا * لأحق من جارت عليه ولاته
وتحدث الاقوام أن صنائعا * غرست لدى فتظلت نخلاته

وقيل فى منثور الحكم المعروف رق والمكافأة عتق ومن أشكر الناس الذى يقول

لأشكرنك معروفا هممت به * ان اهتمامك بالمعروف معروف
ولا ألومك ان لم يمضه قدر * فالشئ بالقدر المحتوم مصروف

وهذا النوع من الشكر الذى يتعجل المعروف ويتقدم البر قد يكون على وجوه فيكون تارة من حسن الثقة بالمشكور فى وصول بره واسداء عرفه ولا رأى لمن يحسن به ظن شاكر أن يخلف حسن ظنه فيه فيكون كما قال العتابى

قد أورقت فيك آمالى بوعدك لى * وليس فى ورق الآمال لى ثمر

وقد يكون تارة من فرط شكر الراجى وحسن مكافأة الأمل فلا يرضى لنفسه الا بتعجيل الحق واسلاف الشكر وليس لمن صادف المعروف معدنا زاكيا ومغرسا نامیا أن يفوت نفسه غنما ولا يحرمها ربحا فهذا وجه ثان . وقد يكون تارة ارتهانا بالأمول وحثا للمسؤل وبحسب ما أسلف من الشكر يكون الذم عند الاياس . وقال بعض الأدباء من حكماء المتقدمين من شكر لئ على معروف لم تسده اليه فعاجله بالبر والا انعكس فصار ذما . وقال ابن الرومى

وما الحقد الا توأم الشكر في الفتى * وبعض السجايا ينتسبن الى بعض
فحيث ترى حقدا على ذي اساءة * فثم ترى شكرا على حسن القرض
اذا الارض أدت ريع ما أنت زارع * من البذر فيها فهي ناهيك من أرض
وأما من ستر معروف المنعم ولم يشكره على ما أولاه من نعمه فقد كفر النعمة وجحد الصنيعة وإن من أذم الخلائق وأسوأ الطرائق ما يستوجب به قبح الرد وسوء المنع . فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا يشكر الله من لا يشكر الناس » . وقال بعض الأدباء من لم يشكر لمنعمه استحق قطع النعمة . وقال بعض الفصحاء من كفر نعمة المفيد استوجب حرمان المزيد . وقال بعض البلغاء من أنكر الصنيعة استوجب قبح القطيعة وأنشدني بعض الأدباء ما ذكر أنه لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه

من جاور النعمة بالشكر لم * يخش على النعمة مغتالها
لو شكروا النعمة زادتهم * مقالة الله التي قالها
لئن شكرتم لأزيدنكم * لكنما كفرهم غالها
والكفر بالنعمة يدعو الى * زوالها والشكر أبقى لها

وهذا آخر ما يتعلق بالقاعدة الثانية من أسباب الالفة الجامعة

(فأما القاعدة الثالثة) فهي المادة الكافية لان حاجة الانسان لازمة لا يعرى منها بشر . قال الله تعالى « وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين » فاذا عدم المادة التي هي قوام نفسه لم تدم له حياة ولم يستقم له دين واذا تعذر شيء منها عليه لحقه من الوهن في نفسه والاختلال في دنياه بقدر ما تعذر من المادة عليه لان الشيء القائم بغيره يكمل بكماله ويختل باختلاله

ثم لما كانت المواد مطلوبة لحاجة الكافة اليها أعوزت بغير طلب وعدمت لغير سبب وأسباب المودة مختلفة وجهات المكاسب متشعبة ليكون اختلاف أسبابها علة الائتلاف بها وتشعب جهاتها توسعة لطلابها كيلا يجتمعوا على سبب واحد فلا يلتئمون أو يشتركوا فى جهة واحدة فلا يكتفون ثم هداهم اليها بعقولهم وأرشدهم اليها بطباعهم حتى لا يتكلفوا ائتلافهم فى المعايش المختلفة فيعجزوا ولا يعانوا بتقدير موادهم بالمكاسب المتشعبة فيختلوا حكمة منه سبحانه وتعالى اطلع بها على عواقب الامور وقد أنبأ الله تعالى فى كتابه العزيز اخبارا وإذ كارا فقال سبحانه وتعالى « قال ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى » اختلف المفسرون فى تأويل ذلك فقال قتادة أعطى كل شئ ما يصلحه ثم هداه وقال مجاهد أعطى كل شئ صورته ثم هداه لمعيشته وقال تعالى « يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » يعنى معايشهم متى يزرعون ومتى يغرسون . وقال تعالى « وقدّر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين » قال عكرمة قدر فى كل بلدة منها ما لم يجعله فى الاخرى ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة من بلد الى بلد . وقال الحسن البصرى وعبد الرحمن بن زيد قدّر أرزاق أهلها سواء للسائلين الزيادة فى أرزاقهم ثم ان الله تعالى جعل لهم مع ما هداهم اليه من مكاسبهم وأرشدهم اليه من معايشهم دينا يكون عليهم حكما ، وشرعا يكون لهم قيما ليصلوا الى موادهم بتقديره ويطلبوا أسباب مكاسبهم بتدبيره حتى لا ينفردوا بارادتهم فيتغالبوا وتستولى عليهم أهواؤهم فيتقاطعوا قال الله تعالى « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والارض » . قال المفسرون فى هذا الموضع هو الله جل جلاله فلأجل ذلك لم يجعل المواد مطلوبة

بالالهام حتى جعل العقل هاديا اليها والدين قاضيا عليها لتتم السعادة وتعم المصلحة ثم انه جلت قدرته جعل سد حاجتهم وتوصلهم الى منافعهم من وجهين بمادة وكسب . فأما المادة فهي حادثة عن اقتناء أصول نامية بذواتها وهي شيئان نبت نام وحيوان متناسل . وقال الله تعالى «وأنه هو أغنى وأقنى» قال أبو صالح أغنى خلقه بالمال وأقنى جعل لهم قنية وهي أصول الاموال . وأما الكسب فيكون بالافعال الموصلة الى المادة والتصرف المؤدى الى الحاجة وذلك من وجهين أحدهما تقلب في تجارة والثاني تصرف في صناعة وهذان هما فرع لوجهي المادة فصارت أسباب المواد المألوفه وجهات المكاسب المعروفه من أربعة أوجه نماء زراعة ونتاج حيوان وربح تجارة وكسب صناعة . وحكى الحسن بن رجاء مثل ذلك عن المأمون قال سمعته يقول معايش الناس على أربعة أقسام زراعة وصناعة وتجارة و إمارة فمن خرج عنها كان كلا عليها و إذ قد تقررت أسباب المواد بما ذكرناه فسنصف حال كل واحد منها بقول موجز

أما الاول من أسبابها وهي الزراعة فهي مادة أهل الحضر وسكان الامصار والمدن والاستمداد بها أعم نفعا وأوفى فرعا ولذلك ضرب الله تعالى بها المثل فقال «مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء» وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «خير المال عين ساهرة لعين نائمة» وقال صلى الله عليه وسلم «نعمت لكم النخلة تشرب من عين خراره وتغرس في أرض خوّاره» . وقال صلى الله عليه وسلم في النخل هي الراسخات في الوحل المطعمات في المحل . وقال بعض السلف خير المال عين خرارة في أرض خوّارة تسهر اذا نمت وتشهد

اذا غبت وتكون عقبا اذا مت . وروى هشام بن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم التمسوا الرزق فى خبايا الارض يعنى الزرع . وحكى عن المعتضد أنه قال رأيت على بن أبى طالب رضى الله عنه فى المنام يناولنى المسحاة وقال خذها فانها مفاتيح خزائن الارض . وقال كسرى للموبذ ما قيمة تاجى هذا فأطرق ساعة ثم قال ما أعرف له قيمة الا أن تكون مطرة فى نيسان فانها تصلح من معايش الرعية ما تكون قيمته مثل تاج الملك . ولقى عبد الله بن عبد الملك ابن شهاب الزهرى فقال له ادلنى على مال أعالجه فأنشأ ابن شهاب يقول

تتبع خبايا الارض وادع مليكها * لعلك يوما أن تجاب فترزقا
فيؤتيك مالا واسعا ذا مئانة * اذا ما مياه الأرض غارت تدفقا

وقد اختلف الناس فى تفضيل الزرع والشجر بما ليس يتسع كتابنا هذا لبسط القول فيه غير أن من فضل الزرع فلقرب مداه ووفور جداه ومن فضل الشجر فلثبوت أصله وتوالى ثمره

وأما الثانى من أسبابها وهو نتاج الحيوان فهو مادة أهل الفلوات وسكان الخيام لانهم لما لم تستقر بهم دار ولم تضمهم أمصار افتقروا الى الاموال المنتقلة معهم ومما لا ينقطع غماؤه بالظعن والرحلة فاقتنوا الحيوان لانه يستقل فى النقلة بنفسه ويستغنى عن العلوفة برعيه ثم هو مركوب ومحلوب فكان اقتناؤه على أهل الخيام أيسر لقلة مؤنته وتسهيل الكلفة به وكانت جدواه عليهم أكثر لوفور نسله واقتيات رسله الهاما من الله لخلقه فى تعديل المصالح فيهم وإرشاد العباد فى قسم المنافع بينهم . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال خير المال مهرة مأمورة وسكة مأبورة ومعنى قوله

صلى الله عليه وسلم مهرة مأمورة أى كثيرة النسل ومنه ما تأول الحسن وقتادة قوله تعالى أمرنا مترفيها أى كثرنا عددهم وأما السكة المأبورة فهى النخلة المؤبرة الحمل . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال فى الغنم سمنها معاش وصوفها رياش . وروى عن أبى ظبيان أنه قال قال لى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ما مالك يا أبا ظبيان قال قلت عطائى ألفان قال تتخذ من هذا الحرث والسائمة قبل أن تليك غلمة من قريش لا تعد العطاء عليهم مالا والسائمة النتاج . وحكى أن امرأة أتت النبى صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله انى اتخذت غنما أبتغى نسلها ورسلها وانها الآن هى فقال لها النبى صلى الله عليه وسلم ما ألوانها قالت سود فقال لها عفرى وهذا مثل قوله صلى الله عليه وسلم فى مناكب الآدميين اغتربوا لا تضووا

وأما الثالث من أسبابها وهى التجارة فهى فرع لمادتى الزرع والنتاج فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال تسعة أعشار الرزق فى التجارة والحرث والباقى فى السائمة وهى نوعان تقلب فى الحضر من غير نقلة ولا سفر وهذا تربص واحتكار وقد رغب عنه ذو والأقدار وزهد فيه ذو والاخطار والثانى تقلب بالمال بالاسفار ونقلة الى الامصار فهذا أليق باهل المروءة وأعم جدوى ومنفعة غير أنه أكثر خطرا وأعظم غررا فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ان المسافر وماله لعلى قلت إلا ما وقى الله يعنى على خطر وفى التوراة يا ابن آدم أحدث سفرا أحدث لك رزقا

وأما الرابع من أسبابها وهو الصناعة فقد يتعلق بما مضى من الاسباب الثلاثة وتنقسم أقسامها ثلاثة صناعة فكر وصناعة عمل وصناعة مشتركة بين فكر وعمل لأن الناس آلات للصناعات فأشرفهم نفسا منتهى لأشرفها

جنسا كما أن أرذلهم نفسا متهيئ لأرذلها جنسا الان الطبع يبعث على ما يلائمه و يدعو الى ما يجانسه . وحكى أن الاسكندر لما أراد الخروج الى أقاصى الارض قال لارسطاطاليس اخرج معى قال قد نحل جسمى وضعفت عن الحركة فلا تزعجنى قال فما أصنع فى عمالى خاصة قال انظر الى من كان له عبيد فأحسن سياستهم فوله الجنود ومن كانت له ضيعة فأحسن تدبيرها فوله الخراج فنبه باعتبار الطباع على ما أغناه عن كلفة التجربة . وأشرف الصناعات صناعة الفكر وأرذلها صناعة العمل لان العمل نتيجة الفكر وتدبيره . فأما صناعة الفكر فقد تنقسم قسمين . أحدهما ما وقف على التدبيرات الصادرة عن نتائج الآراء الصحيحة كسياسة الناس وتدبير البلاد وقد أفردنا للسياسة كتابا لخصنا فيه من جملها ما ليس يحتمل هذا الكتاب زيادة عليها . والثانى ما أدت الى المعلومات الحادثة عن الافكار النظرية وقد مضى فى فضل العلم من كتابنا هذا باب أغنى ما فيه عن زيادة قول فيه . وأما صناعة العمل فقد تنقسم قسمين عمل صناعى وعمل بهيمى . فالعمل الصناعى أعلاهما رتبة لانه يحتاج الى معاطاة فى تعلمه ومعاناة فى تصوره فصار بهذه النسبة من المعلومات الفكرية والآخر انما هو صناعة كد وآلة مهنة وهى الصناعة التى تقتصر عليها النفوس الرذلة وتقف عليها الطباع الخاسئة كما قال أكثم بن صيفى لكل ساقطة لاقطة وكما قال المتلمس

ولا يقيم على ضيم يسام به * إلا الأذلان عير الحى والوتد
هذا على الخسف مربوط برمته * وذا يشج فلا يرثى له أحد

وأما الصناعة المشتركة بين الفكر والعمل فقد تنقسم قسمين . أحدهما أن تكون صناعة الفكر أغلب والعمل تبعا كالكتابة . والثانى أن تكون

صناعة العمل أغلب والفكر تبعا كالبناء وأعلاهما رتبة ما كانت صناعة الفكر أغلب عليها والعمل تبعا لها فهذه أحوال الخلق التي ركبهم الله عز وجل عليها في ارتياد موادهم ووكلهم الى نظرهم في طلب مكاسبهم وفرق بين هممهم في التماسها ليكون ذلك سببا لألفتهم فسبحان من تفرد فينا بلطف حكمته وأظهر لفطنتنا عزائم قدرته واذ قد وضح القول في أسباب المواد وجهات الكسب فليس يخلو حال الانسان فيها من ثلاثة أمور .

أحدها أن يطلب منها قدر كفايته ويلتمس وفق حاجته من غير أن يتعدى الى زيادة عليها أو يقتصر على نقصان منها فهذه أحمد أحوال الطالبين وأعدل مراتب المقتصدين . وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال أوحى الله تعالى الي كلمات فدخلن في أذني ووقرن في قلبي من أعطى فضل ماله فهو خير له ومن أمسك فهو شر له ولا يلام الله على كفاف . وروى حميد عن معاوية بن حيدة قال قلت يا رسول الله ما يكفيني من الدنيا قال ما يسد جوعتك ويستر عورتك فان كان دارا فذا لك وان كان حمارا فبخ بخ فلق من خبز وجرة من ماء وأنت مسؤل عما فوق الازار . وقد روى عن ابن عباس ومجاهد في قوله تعالى اذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا أن كل من ملك بيتا وزوجة وخادما فهو ملك . وروى زيد بن أسلم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان له بيت وخادم فهو ملك وهو في المعنى صحيح لانه بالزوجة والخادم مطاع في أمره وفي الدار محجوب الا عن اذنه وليس على من طلب قدر الكفاية ولم يجاوز تبعات الزيادة الا توخي الحلال منه واجمال الطلب فيه وتجانبه الشبهة المماز جة له . وقد روى نافع عن ابن عمر رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات فدع ما يريبك الى ما لا يريبك فلن تجد فقد شيء

تركته لله . وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الزهد فقال أما انه ليس باضاعة المال ولا تحريم الحلال ولكن أن تكون بما بيد الله أوثق منك بما في يديك وأن يكون ثواب المصيبة أرجح عندك من بقائها . وحكى عبد الله بن المبارك قال كتب عمر بن عبد العزيز الى الجراح بن عبد الله الحكمى ان استطعت أن تدع مما أحل الله لك ما يكون حاجزا بينك وبين الحرام فافعل فانه من استوعب الحلال تاقت نفسه الى الحرام وقد اختلف أهل التأويل فى قوله تعالى فان له معيشة ضنكا فقال عكرمة يعنى كسبا حراما وقال ابن عباس هو انفاق من لا يوقن بالخلف وقال يحيى ابن معاذ الدرهم عقرب فاذا أحسنت رقيتها والا فلا تأخذها وقيل من قل توقيه كثرت مساويه . وقال بعض البلغاء خير الاموال ما أخذته من الحلال وصرفته فى النوال وشر الاموال ما أخذته من الحرام وصرفته فى الآثام وكان الاوزاعى الفقيه كثيرا ما يتمثل بهذه الابيات

المال ينفد حله وحرامه * يوما ويبقى بعده آثامه
ليس التقى بمنق لالهه * حتى يطيب شرابه وطعامه
ويطيب ما يجنى ويكسب أهله * ويطيب من لفظ الحديث كلامه
نطق النبى لنا به عن ربه * فعلى النبى صلاته وسلامه

وحكى عن ابن المعتمر السلمى قال الناس ثلاثة أصناف أغنياء وفقراء وأوساط . فالفقراء موتى الا من أغناه الله بعز القناعة . والاغنياء سكارى الا من عصمه الله تعالى بتوقع الغير وأكثر الخير مع أكثر الاوساط وأكثر الشر مع أكثر الفقراء والاغنياء لسخف الفقر وبطر الغنى والامر الثانى أن يقصر عن طلب كفايته ويزهد فى التماس مادته وهذا التقصير قد يكون على ثلاثة

أوجه فيكون تارة كسلا وتارة توكلا وتارة زهدا وتقنعا فان كان تقصيره لكسل فقد حرم ثروة النشاط ومرح الاغتباط فلن يعدم أن يكون كلا قصيا أوضائعا شقيا . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال كاد الحسد يغلب القدر وكاد الفقر أن يكون كفرا وقال بزرجمهر ان كان شئ فوق الحياة فالصحة وان كان شئ مثلها فالغنى وان كان شئ فوق الموت فالمرض وان كان شئ مثله فالفقر . وقيل في منثور الحكم القبر خير من الفقر ووجد في نيل مصر مكتوبا على حجر

عقب الصبر نجاح وغنى * ورداء الفقر من نسج الكسل

وقال بعض الشعراء

أعوذ بك اللهم من بطر الغنى * ومن نهكة البلوى ومن ذلة الفقر
ومن أمل يمتد في كل شارق * يرجعني منه بخط يد صفر
اذا لم تدنسي الذنوب بعارها * فلست ابالي ما تشعث من أمري

واذا كان تقصيره لتوكل فذلك عجز قد أعذر به نفسه وترك حزم قد غير اسمه لان الله تعالى انما أمر بالتوكل عند انقطاع الحيل والتسليم الى القضاء بعد الاعواز . وقد روى معمر عن أيوب عن أبي قلابة قال ذكر عند النبي صلى الله عليه وسلم رجل فذكر فيه خير فقالوا يا رسول الله خرج معنا حاجا فاذا نزلنا منزلا لم يزل يصلي حتى نرحل فاذا ارتحلنا لم يزل يذكر الله عز وجل حتى ننزل فقال صلى الله عليه وسلم فمن كان يكفيه علف ناقته وصنع طعامه قالوا كلنا يا رسول الله قال كلكم خير منه . وقال بعض الحكماء ليس من توكل المرء أضاعته للحزم ولا من الحزم اضاعة نصيبه من التوكل . وان كان تقصيره لزهد وتقنع فهذه حال من علم عباسة نفسه بتبعات الغنى والثروة وخاف عليها بوائق الهوى والقدرة فآثر الفقر على الغنى وزجر النفس عن

ركوب الهوى فقد روى أبو الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من يوم طلعت فيه شمسه الا وعلى جنبتيها ملكان ينادي ان يسمعهما خلق الله كلهم الا الثقلين يا أيها الناس هلموا الى ربكم ان ما قل وكفى خير مما كثر وألهى . وروى زيد بن علي بن الحسين عن أبيه عن جده رضي الله عنهم أجمعين أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انتظار الفرج من الله بالصبر عبادة ومن رضي من الله عز وجل بالقليل من الرزق رضي عز وجل منه بالقليل من العمل . وروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال من نبل الفقر أنك لا تجد أحدا يعصي الله ليفتقر فأخذه محمود الوراق فقال

يا عائب الفقر ألا تزدجر * عيب الغنى أكثر لو تعتبر
من شرف الفقر ومن فضله * على الغنى ان صح منك النظر
أنك تعصي لتنال الغنى * ولست تعصي الله كي تفتقر

وقال ابن المقفع

دليلك أن الفقر خير من الغنى * وأن قليل المال خير من الثرى
لقاؤك مخلوقا عصى الله بالغنى * ولم تر مخلوقا عصى الله بالفقر

وهذه الخصال انما تصح لمن نصح نفسه فأطاعته وصدقها فأجابته حتى لان قيادها وهان عنادها وعلمت أن من لم يقنع بالقليل لم يقنع بالكثير كما كتب الحسن البصري الى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما يا أخي من استغنى بالله اكتفى ومن انقطع الى غيره تعنى ومن كان من قليل الدنيا لا يشبع لم يغنه منها كثرة ما يجمع فعليك منها بالكفاف وألزم نفسك العفاف واياك وجمع الفضول فان حسابه يطول . وقال بعض الحكماء مهيات منك الغنى

ان لم يقتنعك ما حويت فأما من أعرضت نفسه عن قبول نصحه و جحت به عن قناعة زهده فليس الى اكراهها سبيل ولا للحمل عليها وجه الا بالرياضة والمروءة وأن يستنزلها الى اليسير الذى لا تنفر منه فاذا استقرت عليه أنزلها الى ما هو أقل منه لتنتهى بالتدريج الى الغاية المطلوبة وتستقر بالرياضة والتمرين على الحال المحبوبة . وقد تقدم قول الحكماء ان المكروه يسهل بالتمرين فهذا حكم ما فى الامر الثانى من التقصير عن طلب الكفاية (وأما الامر الثالث) فهو أن لا يقنع بالكفاية و يطلب الزيادة والكثرة فقد يدعو الى ذلك أربعة أسباب . أحدها منازعة الشهوات التى لا تنال الا بزيادة المال وكثرة المادة فاذا نازعته الشهوة طلب من المال ما يوصله اليها وليس للشهوات حد متناه فيصير ذلك ذريعة الى أن ما يطلبه من الزيادة غير متناه ومن لم يتناه طلبه استدام كده وتعبه فلم يف التذاذه بنيل شهواته بما يعانيه من استدامة كده واتعابه مع ما قد لزمه من ذم الانقياد لمغالبة الشهوات والتعرض لاكتساب التبعات حتى يصير كالبهيمة التى قد انصرف طلبها الى ما تدعو اليه شهوتها فلا تنزجر عنه بعقل ولا تنكف عنه بقناعة . وقد روى عن على عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من أراد الله به خيرا حال بينه و بين شهوته وحال بينه و بين قلبه واذا أراد به شرا وكله الى نفسه . وقد قال الشاعر

وانك ان أعطيت بطنك همه * وفرجك نالا منتهى الذم أجمعا

(والسبب الثانى) أن يطلب الزيادة و يلتمس الكثرة ليصرفها فى وجوه الخير و يتقرب بها فى جهات البر و يصطنع بها المعروف و يغيث بها الملهوف فهذا أعذر و بالحمد أحرى وأجدر اذا انصرفت عنه تبعات المطالب وتوفى

شبهات المكاسب وأحسن التقدير فى حالتى فائدته و إفادته على قدر الزيادة وبقدر الامكان لأن المال آلة للمكارم وعون على الدين ومتألف للاخوان ومن فقده من أهل الدنيا قلت الرغبة فيه والرهبة منه ومن لم يكن منهم بموضع رهبة ولا رغبة استهانوا به . وقد روى عبد الله بن بريدة عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان حساب أهل الدنيا هذا المال . وقال مجاهد الخير فى القرآن كله المال وانه لحب الخير لشديد يعنى المال وأجبت حب الخير عن ذكر ربى يعنى المال فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا يعنى مالا وقال شعيب النبى عليه السلام انى أراكم بخير يعنى المال وانما سمى الله تعالى المال خيرا اذا كان فى الخير مصروفا لان ما أدى الى الخير فهو فى نفسه خير وقد اختلف أهل التأويل فى قوله تعالى ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار فقال السدى وعبد الرحمن ابن زيد الحسنة فى الدنيا المال وفى الآخرة الجنة وقال الحسن البصرى وسفيان الثورى الحسنة فى الدنيا العلم والعبادة وفى الآخرة الجنة وقال ابن عباس الدراهم والدنانير خواتم الله فى الارض لا تؤكل ولا تشرب حيث قصدت بها قضيت حاجتك وقال قيس بن سعد اللهم ارزقنى جدا ومجدا فانه لا جد الا بفعال ولا مجد الا بمال . وقد قيل لابى الزناد لم تحب الدراهم وهى تدنيك من الدنيا فقال هى وان أدنتنى منها فقد صانتنى عنها وقال بعض الحكماء من أصلح ماله فقد صان الأكرمين الدين والعرض . وقيل فى منثور الحكم من استغنى كرم على أهله ومر رجل من أرباب الاموال ببعض العلماء فتحرك له وأكرمه فقيل له بعد ذلك أكانت لك الى هذا حاجة قال لا ولكنى رأيت ذا المال مهيبا وسأل رجل محمد بن

عمير بن عطارد وعتاب بن ورقاء في عشر ديات فقال محمد على ديته وقال عتاب الباقي علي فقال محمد نعم العون على المجد اليسار وقال الاحنف بن قيس

فلو كنت مثري عال كثير * لجدت وكنت له باذلا
فان المروءة لا تستطاع * اذا لم يكن مالها فاضلا

وكان يقال الدراهم مراهم لانها تداوي كل جرح ويطيب بها كل صلح . وقال ابن الجلال

رزقت مالا ولم ترزق مروءته * وما المروءة الا كثرة المال
اذا أردت رقي العلياء يقعدني * عما ينوه باسمي رقة الحال

وقيل في منثور الحكم الفقر مخذلة والغنى مجذلة والبؤس مرذلة والسؤال مبذلة . وقال أوس بن حجر

أقيم بدار الحزم مادام حزمها * وأحر اذا حالت بأن أتحولا
فاني وجدت الناس الا أقلهم * خفاف عهود يكثرون التنقلا
بني أم ذي المال الكثير رونه * وان كان عبدا سيد القوم محفلا
وهم لمقل المال أولاد علة * وان كان محضا في العشيرة مخولا

وقال بشر الضرير

كفى حزنا أني أروح وأغتدي * ومالي من مال أصون به عرضي
وأكثر ما ألقى الصديق بمرحبا * وذلك لا يكفي الصديق ولا يرضي

وقال آخر

أجلك قوم حين صرت الى الغنى * وكل غنى في العيون جليل
وليس الغنى الا غنى زين الفتى * عشية يقرى أو غداة ينيل

وقد اختلف الناس فى تفضيل الغنى والفقر مع اتفاقهم على أن ما أحوج من الفقر مكروه وما أبطر من الغنى مذموم فذهب قوم الى تفضيل الغنى عن الفقر لان الغنى مقتدر والفقير عاجز والقدرة أفضل من العجز وهذا مذهب من غلب عليه حب النباهة وذهب آخرون الى تفضيل الفقر على الغنى لان الفقير تارك والغنى ملابس وترك الدنيا أفضل من ملابستها وهذا مذهب من غلب عليه حب السلامة وذهب آخرون الى تفضيل التوسط بين الامرين بأن يخرج عن حد الفقر الى أدنى مراتب الغنى ليصل الى فضيلة الامرين ويسلم من مذمة الحالين وهذا مذهب من يرى تفضيل الاعتدال وأن خيار الامور أوساطها وقد مضى شواهد كل فريق فى موضعه بما أغنى عن اعادته . والسبب الثالث أن يطلب الزيادة ويقتنى الاموال ليدخرها لولده و يخلفها لورثته مع شدة ضنه على نفسه وكفه عن صرف ذلك فى حقه اشفاقا عليهم من كدح الطلب وسوء المنقلب وهذا شقى بجمعها مأخوذ بوزرها قد استحق اللوم من وجوه لا تخفى على ذى لب . منها سوء ظنه بخالقه أنه لا يرزقهم الا من جهته وقد قيل قتل القنوط صاحبه وفى حسن الظن بالله راحة القلوب . وقال عبد الحميد كيف تبقى على حالتك والدهر فى احالتك . ومنها الثقة ببقاء ذلك على ولده مع نوائب الزمان ومصائبه وقد قيل الدهر حسود لا يأتى على شئ الا غيره . وقيل فى منثور الحكم المال معلول . وقال بعض الحكماء الدنيا ان بقيت لك لا تبقى لها ومنها ما حرم من منافع ماله وسلب من وفور حاله وقد قيل انما مالك لك أو للوارث أو للجائحة فلا تكن أشقى الثلاثة . وقال عبد الحميد اطرح كواذب آمالك وكن وارث مالك ومنها ما لحقه من شقاء جمعه وناله من عناء كده حتى

صار ساعيا محروما و جاهدا مذموما وقد قيل رب مغبوط بمسرة هي داؤه ومرحوم من سقم هو شفاؤه وقال الشاعر

ومن كلفته النفس فوق كفافها * فما ينقضي حتى الممات عناؤه

ومنها ما يؤاخذ به من وزره وآثامه و يحاسب عليه من تبعاته وأجرامه . وقد حكي أن هشام بن عبد الملك لما ثقل بكى ولده عليه فقال لهم جاد لكم هشام بالدنيا و جدتم عليه بالبكاء وترك لكم ما كسب وتركتم عليه ما اكتسب ما أسوأ حال هشام ان لم يغفر الله له فأخذ هذا المعنى محمود الورّاق فقال

تمتع بمالك قبل الممات * والا فلا مال ان أنت متا

شقيت به ثم خلفته * لغيرك بعدا وسحقا ومقتا

فجادوا عليك بزور البكاء * وجدت عليهم بما قد جمعتا

وأرهنتهم كل ما في يديك * وخلوك رهنا بما قد كسبتا

وروى أن العباس بن عبد المطلب جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله ولني فقال النبي صلى الله عليه وسلم يا عباس يا عم النبي صلى الله عليه وسلم قليل يكفيك خير من كثير يرديك يا عباس يا عم النبي نفس تنجيها خير من امارة لا تحصيها يا عباس يا عم النبي صلى الله عليه وسلم ان الامارة أولها ندامه وأوسطها ملامه وآخرها جزاء يوم القيامة فقال يارسول الله الا من عدل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف تعدلون مع الاقارب . وقال رجل للحسن البصري رحمه الله اني أخاف الموت وأكرهه فقال انك خلفت مالك ولو قدمته لسرك اللحاق به . وقيل

فى منثور الحكم كثرة مال الميت تعزى ورثته عنه فأخذ هذا المعنى ابن الرومى فقال وزاد

أبقيت مالك ميراثا لوارثه * فليت شعرى ما أبقى لك المال
القوم بعدك فى حال تسرهم * فكيف بعدهم حالت بك الحال
ملوا البكاء فما يبكيك من أحد * واستحكم القول فى الميراث والقال
ولتهم عنك دنيا أقبلت لهم * وأدبرت عنك والايام أحوال

والسبب الرابع أن يجمع المال و يطلب المكاثرة استحلاء لجمعه وشغفا باحتجانه فهذا أسوأ الناس حالا فيه وأشدهم حرمانا له قد توجهت اليه سائر الملاوم حتى صار و بالا عليه ومذاما له وفى مثله قال الله تعالى والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم فقال النبى صلى الله عليه وسلم تبا للذهب تبا للفضة فشق ذلك على أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا أى مال نتخذ فقال عمر رضى الله عنه أنا أعلم لكم ذلك فقال يا رسول الله ان أصحابك قد شق عليهم فقالوا أى مال نتخذ فقال لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا وزوجة مؤمنة تعين أحدكم على دينه . وروى شهر بن حوشب عن أبى أمامة قال مات رجل من أهل الصفة فوجد فى مئزره دينار فقال النبى صلى الله عليه وسلم كية ثم مات آخر فوجد فى مئزره ديناران فقال النبى صلى الله عليه وسلم كيتان وانما ذكر ذلك فيهما وان كان قد مات على عهده من ترك أموالا جمة وأحوالا ضخمة فلم يكن فيه ما كان فى هذين لانهما تظاهرا بالقناعة واحتجنا ما ليس بهما اليه حاجة فصار ما احتجناه وزرا عليهما وعقابا لهما وقد قال الشاعر

اذا كنت ذا مال ولم تك ذا ندى * فأنت اذا والمقترون سواء
على أن فى الاموال يوما متاعة * على أهلها والمقتر ون براء

وأنشدت عن الربيع للشافعى رضى الله عنه

ان الذى رزق اليسار فلم يصب * حمدا ولا أجرا لغير موفق
والجد يدنى كل شئ شاسع * والجد يفتح كل باب مغلق
وأحق خلق الله بالهم امرؤ * ذو همة عليا وعيش ضيق
ومن الدليل على القضاء وكونه * بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق
فاذا سمعت بأن مجدودا حوى * عودا فأورق فى يديه فأثمرا
واذا سمعت بأن محدودا أتى * ماء ليشربه فجف فصدق

وآفة من بلى بالجمع والاستكثار ومنى بالامساك والادخار حتى انصرف عن رشده فغوى وانحرف عن سنن قصده فهوى أن يستولى عليه حب المال وبعد الامل فيبعثه حب المال على الحرص فى طلبه ويدعوه بعد الامل على الشح به والحرص والشح أصل لكل ذم وسبب لكل لوم لأن الشح يمنع من أداء الحقوق ويبعث على القطيعة والعقوق ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم شر ما أعطى العبد شح هالع وجبن خالع . وقال بعض الحكماء الغنى البخيل كالقوى الجبان . وأما الحرص فيسلب فضائل النفس لاستيلائه عليها ويمنع من التوفر على العبادة لتشاغله عنها ويبعث على التورط فى الشبهات لقلة تحرزه منها وهذه ثلاث حالات من جامعات الرذائل سالبات الفضائل مع أن الحريص لا يستزيد بحرصه زيادة على رزقه سوى اذلال نفسه واسخاط خالقه وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال الحريص المجاهد والقنوع الزاهد

يستوفيان أكلهما غير منتقص منه فعلام التهافت . وقال بعض الحكماء الحرص مفسدة للدين والمروءة والله ما عرفت من وجه رجل حرصا فرأيت أن فيه مصطنعا وقال آخر الحريص أسير مهانة لا يفك أسره وقال بعض البلغاء المقادير الغالبة لا تنال بالمغالبة والارزاق المكتوبة لا تنال بالشدة والمكالبة فذلل للمقادير نفسك واعلم بانك غير نائل بالحرص الا حظك . وقال بعض الادباء رب حظ أدركه غير طالبه ودر أحرزه غير حالبه . وأنشدني بعض أهل الادب لمحمد بن حازم

يا أسير الطمع الكا * ذب في غل الهوان
ان عز اليأس خير * لك من ذل الامانى
سامح الدهر اذا عز * وخذ صفو الزمان
ربما أعدم ذو الحر * ص وأثرى ذو التوانى

وليس للحريص غاية مقصودة يقف عندها ولا نهاية محدودة يقنع بها لانه ان وصل بالحرص الى ما أمل أغراه ذلك بزيادة الحرص والامل واذا لم يصل رأى اضاعة العناء لوما والصبر عليه حزما وصار بما سلف من عنائه أقوى رجاء وأبسط أملا . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال يشيب ابن آدم و يبقى معه خصلتان الحرص والامل وقيل للمسيح عليه السلام ما بال المشايخ أحرص على الدنيا من الشباب قال لانهم ذاقوا من طعم الدنيا ما لم يذقه الشباب ولو صدق الحريص نفسه واستنصح عقله لعلم أن من تمام السعادة وحسن التوفيق الرضا بالقضاء والقناعة بالقسم وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال اقتصدوا فى الطلب فان مارزق قتموه شد طلبا لكم منكم له وما حرمتموه فان تنالوه ولو حرصتم . وروى أن

جبريل على نبينا وعليه السلام هبط على النبي صلى الله عليه وسلم فقال ان الله تبارك وتعالى يقرأ عليك السلام و يقول لك اقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى فأمر النبي صلى الله عليه وسلم منادا ينادي من لم يتأدب بأدب الله تعالى تقطعت نفسه على الدنيا حسرات . وقيل مكتوب في بعض الكتب ردّوا أبصاركم عليكم فان لكم فيها شغلا . وقال مجاهد في تأويل قوله تعالى ولنحيينه حياة طيبة قال بالقناعة . وقال أكثم بن صيفي من باع الحرص بالقناعة ظفر بالغنى والمروءة . وقال بعض السلف قد يخيب الجاهد الساعي و يظفر الوادع الهادي فأخذه البحتري فقال

لم ألق مقدورا على استحقاقه * في الحظ إما ناقصا أوزائدا
وعجبت للمحدود يحرم ناصبا * كلفا وللمجدود يغنم قاعدا
ما خطب من حرم الارادة قاعدا * خطب الذي حرم الارادة جاهدا

وقال بعض الحكماء ان من قنع كان غنيا وان كان مقترا ومن لم يقنع كان فقيرا وان كان مكثرا وقال بعض البلغاء اذا طلبت العز فاطلبه بالطاعة واذا طلبت الغنى فاطلبه بالقناعة فمن أطاع الله عز و جل عز نصره ومن لزم القناعة زال فقره وقال بعض الادباء القناعة عز المعسر والصدقة حرز الموسر . وقال بعض الادباء

انى أرى من له قنوع * يدرك ما نال من تمنى
والرزق يأتى بلا عناء * ور بما فات من تعنى

والقناعة قد تكون على ثلاثة أوجه . فالوجه الاول أن يقنع بالبلغة من

دنياه ويصرف نفسه عن التعرض لما سواه وهذا أعلى منازل أهل القناعة وقال الشاعر

اذا شئت أن تحيا غنيا فلا تكن * على حالة الا رضيت بدونها

وقال مالك بن دينار أزهد الناس من لا تجاوز رغبته من الدنيا بلغته وقال بعض الحكماء الرضا بالكفاف يؤدى الى العفاف . وقال بعض الادباء رب ضيق أفضل من سعه وعناء خير من دعه . وأنشدنى بعض أهل الادب وذكر أنه لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه

أفادتنى القناعة كل عز * وأى غنى أعز من القناعه

فصيرها لنفسك رأس مال * وصير بعدها التقوى بضاعه

والوجه الثانى أن تنتهى به القناعة الى الكفاية ويحذف الفضول والزيادة وهذا أوسط حال المقتنع . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال مامن عبد الا بينه وبين رزقه حجاب فان قنع وافتصد أتاه رزقه وان هتك الحجاب لم يزد فى رزقه . وقال بعض الحكماء طلب ما فوق الكفاف اسراف . وقال بعض البلغاء من رضى بالمقدور قنع بالميسور . وقال البحترى

تطلب الاكثر فى الدنيا وقد * تبلغ الحاجة منها بالاقل

وأنشدت لابراهيم بن المدبر

أن القناعة والعفا * ف ليغنيان عن الغنى

فاذا صبرت عن المنى * فاشكر فقد نلت الغنى

والوجه الثالث أن تنتهى به القناعة الى الوقوف على ما سخ فلا يكره ما أتاه وان كان كثيرا ولا يطلب ما تعذر وان كان يسيرا وهذه الحال أدنى منازل

أهل القناعة لانها مشتركة بين رغبة ورهبة أما الرغبة فلأنه لا يكره الزيادة على الكفاية اذا سنحت وأما الرهبة فلأنه لا يطلب المتعذر عن نقصان المادة اذا تعذرت . وفي مثله قال ذو النون رحمة الله عليه من كانت قناعته سمينة طابت له كل مرقة . وقد روى الحسن بن علي عن أبيه عن جده قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الدنيا دول فما كان منها لك أتاك على ضعفك وما كان منها عليك لم تدفعه بقوتك ومن انقطع رجاؤه مما فات استراح بدنه ومن رضي بما رزقه الله تعالى قرت عينه . وقال أبو حازم الاعرج وجدت الدنيا شيئين شيء أهولي لن أعجله قبل أجله ولو طلبته بقوة السموات والارض وشيء أهو لغيري وذلك مما لم أنله فيما مضى ولا أناله فيما بقي يمنع الذي لي من غيري كما يمنع الذي لغيري مني ففي أي هذين أفني عمري وأهلك نفسي . وقال أبو تمام الطائي

لا تأخذني بالزمان فليس لي * تبعا ولست على الزمان كفيلا
من كان مرعى عزمه وهمومه * روض الاماني لم يزل مهزولا
لو جاد سلطان القنوع وحكمه * في الخلق ما كان القليل قليلا
الرزق لا تكمد عليه فانه * يأتي ولم تبعث اليه رسولا

وأنشدني بعض أهل الادب لابن الرومي

جرى قلم القضاء بما يكون * فسيان التحرك والسكون
جنون منك أن تسعى لرزق * ويرزق في غشاوة الجنين

ونحن نسأل الله تعالى أكرم مسؤل وأفضل مأمول أن يحسن الينا التوفيق فيما منح ويصرف عنا الرغبة فيما منع استكفافا لتبعات الثروة وموبقات الشهوة . روى شريك بن أبي نمر عن أبي الجذع عن أعمامه

وأجداده عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « خير أمتى الذين لم يعطوا حتى يبطروا ولم يقتروا حتى يسألوا » . وقال أبو تمام الطائى

عندى من الايام مالو أنه * أضحى بشارب مرقد ماغمضا
لاتطلبن الرزق بعد شماسه * فترومه شعبا اذا ماغيضا
ماعوّض الصبر امرؤ الا رأى * مافاته دون الذى قد عوّضا

## باب أدب النفس وهو الخامس من الكتاب

اعلم أن النفس مجبولة على شيم مهمله وأخلاق مرسله لايستغنى محمودها عن التأديب ولا يكتفى بالمرضى منها عن التهذيب لأن لمحمودها أضدادا مقابلة يساعدها هوى مطاع وشهوة غالبة فان أغفل تأديبها تفويضا الى العقل أو توكلا على أن تنقاد الى الاحسن بالطبع أعدمه التفويض درك المجتهدين وأعقبه التوكل ندم الخائبين فصار من الأدب عاطلا وفى صورة الجهل داخلا لأن الادب مكتسب بالتجربة أو مستحسن بالعادة ولكل قوم مواضعة وكل ذلك لا ينال بتوقيف العقل ولا بالانقياد للطبع حتى يكتسب بالتجربة والمعاناه ويستفاد بالدربة والمعاطاه ثم يكون العقل عليه قيما وزكى الطبع اليه مسلما ولو كان العقل مغنيا عن الأدب لكان أنبياء الله تعالى عن أدبه مستغنين وبعقولهم مكتفين . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال بعثت لأتمم مكارم الاخلاق . وقيل لعيسى بن مريم على نبينا وعليه السلام من أدبك قال ما أدبنى أحد ولكنى رأيت جهل الجاهل بجانبته . وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه ان الله تعالى جعل مكارم الاخلاق ومحاسنها وصلا بينه وبينكم فحسب الرجل أن يتصل